الفصل الخامس

نظرية بديلة حول الحجاب

مـن أهـداف هذا الكتـاب إثبات أن السـياق الاجتماعـي يؤثر على مـا يعزى إلى الحجاب من دلالات. وهدفي من هذا الفصل تقديم نظرية إيجابية عن معنى الحجاب إلى ثقافـة القـرن الواحد والعشـرين الرأسـمالية الاسـتهلاكية. فأقـول: إن اهتمام الرأسـمالية الكبير بالجسـد وبالجانب المادي يمكن أن يجعـل ارتداء الحجاب خبرةً تُقوّي النسـاء وتحررهن. وأسـتهل النقاش بتقديم مقالتين صـحفيتين بقلم مسلمتين وجدتا في ارتداء الحجاب تحرراً. ثم أنتقل إلى تحليل لمقولات نسوية عن نظرة الرجال وتحويل الرأسمالية جسد الأنثى إلى سلعة؛ حتى أصل إلى فكرة أن الحجاب أداة فاعلة لمقاومة الجوانب المؤذية للنسـاء في كل من نظرة الرجال وسلعنة الأنثى. ففي الأقسام جـ، د، هـ أفند بعض مواضـع النقد الشـائعة للحجاب بوصفه زياً يخنق الأنوثة ويجعل من النساء كائنات جنسية ويحرمهن حق الاختيار. ويختتم الفصل بالقسم (و) الذي يعرض الحجاب بوصـفه بوابة إلى تراث إيماني يعين الملتزمات به على مقاومة الآثار المدمرة للمادية.

1ـ الحجاب والتحرر

في الفصل الثاني تتحدث باسمة، وهي إنجليزية اعتنقت الإسلام، عن أنها وجدت في ارتداء الحجاب تحرراً. وتصـف كل من ناهد مصـطفى وسلطانة يوسفالي ارتداء الحجـاب جـزءًا فكرة التحرر أيضـاً. وقد كتبت كل منهما مقالة صـحفية عن سـبب اختيارها ارتداء الحجاب.

تحمل ناهد مصطفى درجة جامعية في العلوم السياسية والتاريخ، بمرتبة الشرف من جامعة تورونتو بكندا، كما أنها خريجة قسم الصحافة من جامعة رايرسون بكندا، وقـد كتبت مقالة عن الحجاب لصـحيفة قوميـة كندية، «ذا جلوب آنـد ميل» في عام

1993. وتفتتح مقالتها بإشارة إلى خطابين متناقضين شائعين عن معنى الحجاب في الثقافة الغربية: «كثيراً ما أتساءل: هل يراني الناس أصولية إرهابية مسلمة أضع سلاحاً هجومياً من طراز أك 74ـ في بنطالي «الجينز»، أم يرونني فتاة غلاف تمثل الأنوثة المقهورة في كل مكان»؟[1]. ثم تطرح تأويلاً ثالثاً: الحجاب يعني أنها «امرأة مسلمة تؤمن أن جسدها شأن خاص بها. فالشابات المسلمات يعُدن إلى الحجاب ويعِدن تأويله في ضوء غرضه الأصلي ـ أي استرداد النساء سيطرتهن الكاملة على أجسادهن». أما ناهد مصطفى فترى أن ارتداء الحجاب يمنحها «حرية»، فتقول: «منحني ارتداء الحجاب تحرراً من الاهتمام المستمر بذاتي الجسدية. لأن مظهري لم يعد مُعرّضاً لتفحص عيون العامة، فقد خرج جمالي،أو ربما افتقاري للجمال، من حيز المسموح بمناقشته». وتذكر ناهد مصطفى أن النساء في الغرب «يتعلمن من نعومة أظفارهن أن قيمتهن ترتبط بجاذبيتهن». وتذكر أنها عاشت مراهقتها على شفا الإصابة بالبوليميا (الأكل اللاإرادي ثم التقيؤ) تجاهد لتحقيق مقاييس الجمال المستحيلة التي تمليها الثقافة الغربية. وتقول: إن النساء اللاتي يحاولن الخروج من لعبة الجمال عن طريق عدم وضع مساحيق التجميل أو ارتداء الحجاب يلاقين «السخرية والاحتقار» من الرجال والنساء في المجتمع. مع ذلك فهي تعد قرار ارتدائها الحجاب سبيلاً لتحقيق مساواة النساء بالرجال أفضل من المقولات النسوية عن تعرية الجسد: «لن تحقق النساء المساواة بامتلاك الحق في كشف أثدائهن أمام الناس، كما يحب بعضهن إقناعك، فذلك يعني اشتراكنا في تحويل أنفسنا إلى أشياء. ولن تتحقق المساواة الحقة إلا عندما لا تضطر النساء إلى تعرية أجسادهن كي ينلن الاهتمام، ولابد للنساء من أن يدافعن عن حقهن في الاحتفاظ بأجسادهن لأنفسهن».

وكتبت سلطانة يوسفالي، وهي طالبة بالمرحلة الثانوية عمرها سبعة عشر عاماً، مقالة في العام 1997 في صحيفة كندية أخرى، (ذا تورونتو ستار)، بعنوان: «جسدي شأني الخاص»[2] تردد فيها أفكار ناهد مصطفى، وتطرح معنىً بديلاً للحجاب يختلف عن الرؤيتين الغربيتين النمطيتين. «عندما ينظر أغلب الناس إليّ يكون أول خاطر لديهم مرتبطاً بالأنثى المقهورة، أما من استطاعوا منهم أن يستجمعوا شجاعتهم

ليسألوني عن طريقة ملبسي، فإن أسئلتهم تكون على نحو: «هل يجبرك والداك على ارتداء هذا؟» أو «ألا ترين أن ذلك ليس إنصافًا؟». وتتساءل سلطانة يوسفالي عن سبب طرد التلميذات في مقاطعة كويبك: «أرى من الغريب أن تتسبب قطعة قماش صغيرة في مثل هذا الجدل الحاد. ربما كنت أخبئ تحتها «عوزي» [بندقية إسرائيلية نصف آلية]؛ إذ لا يمكن أبداً أن تأمن هؤلاء المسلمات الأصوليات».

بل إن ارتداء الحجاب يضع سلطانة يوسفالي موضع المتمردة، إذ تقول: «إنني، على الأرجح، لا أتوافق مع الفكرة المسبقة عن «المتمردة». فليس لدي وشم ظاهر، ولا أرتدي أية أقراط في أماكن غريبة. وليس لديّ سترة جلدية». فما الذي تتمرد عليه سلطانة باختيار الحجاب؟ إنها تتمرد على الأولوية التي تعطيها الثقافة الغربية للجمال الجسدي للنساء. فالحجاب «أحد الجوانب الجوهرية لتقوية النساء؛ فعندما أستر جسدي أجعل من المستحيل على الناس أن يحكموا عليّ من مظهري». إن سلطانة تتمرد على الاهتمام الشديد من جانب الثقافة الغربية بالمظهر الخارجي، وبحكم الناس «على أساس ملبسنا ومجوهراتنا وشعرنا وتبرجنا».

عندما يسألني الناس هل أشعر بالقهر؟ أستطيع أن أقول: «لا» بصدق؛ فقد اتخذت هذا القرار بمحض إرادتي، فأنا أحب كوني متحكمة في طريقة نظر الناس إليّ. وقد حررت نفسي من رق بندول صناعة الموضة الذي لا يتوقف، ومن غيره من المؤسسات التي تستغل الإناث.

وهي تعتقد أن الحجاب أقرب إلى الوصول بالنساء إلى المساواة من سماح الثقافة الغربية باستغلال أجساد النساء لأغراض تجارية:

«لماذا نسمح [نحن النساء] لأنفسنا أن نُستغل بهذه الصورة [الاستغلال في الإعلانات]؟ وسواء أرادت امرأة التسعينيات أن تصدَّق أم لا، فإنها تصاغ في قالب.. وهي تقهر على بيع نفسها والحط من قيمتها. وهذا هو السبب في أننا نجد فتيات في الثالثة عشرة يضعن أصابعهن في حلوقهن ليتقيأن [طلباً للنحافة] ونجد مراهقات بدينات ينتحرن».

وتقول لقرائها إذا رأينها بالحجاب في المرة القادمة: «لا تنظرن إليّ بشفقة فلست رهن تهديد، ولست بالأنثى عابدة الذكر وأسيرته الآتية من الصحارى العربية البربرية، بل لقد تحررت».

2ـ الحجاب ونظرة الذكور

تقدم ناهد مصطفى وسلطانة يوسفالي الحجاب بوصفه أداة تحرر من جوانب قاهرة في الثقافة الاستهلاكية الشعبية الغربية، ولكي تحقق كل منهما ذلك فإنهما تستخدمان نوعين من التحليل النسوي: أولاً، «تَشْيِيْء» و«سلعنة» أجساد النساء في الثقافة الرأسمالية، وثانياً، نظرية الأذى الذي يلحق بالنساء بسبب الترويج لمثالٍ للجمال.

قامت كل من سوزي أوباك، وسوزان بوردو، ونعومي وولف، وجين أوشر، وكاثرين ماكينون وأ. دوركن، وكثيرات من النسويات غيرهن بتحليل تفصيلي لصور النساء في الثقافات الغربية، كما درسن مشكلة تَشْيِيْء الجسد الأنثوي واستخدامه في الإعلان والصور والأفلام الجنسية والرسم والأفلام السينمائية وغيرها (حيثما وجدت صورة للجسد الأنثوي)؛ والمقولة الرئيسة هنا: إن أجساد النساء تقدم بصورة ترضي نظرة الذكور الطبيعية وشهوتهم: فالمرأة جميلة وجسدها مثير جنسياً، وفي اللوحات الفنية ـ لاسيما أشكال الجسد الأنثوي العاري ـ وفي الصور الجنسية كثيراً ما تكون المرأة سلبية وغالباً مستلقية، وتقدم بوصفها متاعاً، ليأخذها الرجل[3] (أو تطلب من الرجل بإلحاح أن يستخدمها)[4]. ففي حالة الصورة أو الفيلم يكون الأخذ بصرياً، ولو أن بعض النسويات يقلن: إن هذا التَّشْيِيْء البصري له آثاره في عالم الواقع، أي أنه «يصوغ النساء كأشياء للاستخدام الجنسي [الذكري]»[5]. ولا يقتصر هذا التصوير للجسد الأنثوي على الرسم، فهو موجود دائماً في مجال البعد المجازي للتصوير حيثما وجدت صوره، لا سيما في الإعلانات: فهناك جسد امرأة بلباس البحر ذي القطعتين (البكيني) يمسح على جهاز العادم (الشاكمان) في سيارة، وهناك جسد امرأة مستلقٍ خلف كومة كتب؛ وساقا امرأة خارجتان من علبة (السيريل)[6] (المزيد من الركلات من «كيكس»)* ولا توجد أي علاقة بين المنتج المبيع وجسد المرأة المعروض للإثارة

* منتج يتوافق صوت نطق اسمه مع المفردة التي تعني ركلات بالإنجليزية: «كيكس»، وتبرز الصورة المقصودة مع وجود الساقين (المترجم).

الجنسية، فالجسد يقدم لمجرد جذب الانتباه، كما أنه يثير الرجال ويعزز درس كون أجساد النساء مجرد أشياء. وهذا النوع من التَّشْيِيْء حسب قول النسويات ينزع عن النساء إنسانيتهن ويحولهن إلى أشياء، وينكر عليهن ذاتيتهن.

وتحتوي دراسة جون بيرجر عن الجسد الأنثوي العاري في تاريخ التصوير (الرسم) الغربي ملخصاً محكماً عن ظاهرة نظر الذكور، يُرجع إليه كثيراً وهو يستحق ذلك:

«الرجال تفعل والنساء تظهر: ينظر الرجال للنساء، ويشاهد النساء أنفسهن في أثناء حملقة الرجال فيهن. ولا يحدد هذا أغلب علاقات الرجال بالنساء فحسب، بل كذلك علاقة النساء بأنفسهن، فالذي يحملق في المرأة ذكر، وبهذا تحول نفسها إلى شيء وبالتحديد الدقيق هدفاً للنظر: أي منظراً»[7].

لا تتوقف المرأة عند استبطان النظرة الذكورية، فتحكم على نفسها بعيون شهوتهم، بل يلتفت النساء بعضهن لبعض فتحكم إحداهن على الأخرى بعيون الذكر ذاتها. وينظر الرجال والنساء جميعاً للنساء بعيون «النظرة الذكورية»، ويوضح هذا تحليل آمي روسيتر لحفل ابنتها الراقص الذي سبب التوتر والقلق للبنات. فقد نظم الأطفال، بين العاشرة والثالثة عشرة حفلاً في بيت أحدهم، وطلب الأولاد من البنات ألا يرتدين السراويل الرياضية. وتقول روسيتر: إن البنات يعددن هذا الحفل الراقص لحظة كاشفة في انتقالهن إلى عالم النساء: فقد تعلمن درساً مبكراً عما يلبسن وكيف يتصرفن حتى يرضين نظرة الذكور، وتذكر أن هذا القلق لم يظهر على أحد من الأولاد على عكس البنات. كانت البنات يتعلمن «السيناريو» الثقافي المعد الذي «ينظم هوية البنت/ الشيء في الحفل الراقص من خلال: 1- الطريقة الصحيحة للكلام، 2- طريقة اللبس الصحيحة، 3- طريقة الرقص الصحيحة[8]؛ فقد انتقلت البنات من حالة «أنا أرقص» إلى حالة «يشاهدني الآخرون وأنا أرقص» (ص 4). إن الرغبة في أداء هذه الأشياء على النحو الصحيح، وفي امتلاك مظهر مرغوب (بالنسبة للأولاد الناظرين) «تزرع الطاعة في الرعايا. وبهذه الطريقة تُنتج النظرة الذكورية التي استبطنتها البنات موافقتهن على هبوطهن إلى مستوى الأشياء» (ص 7). إن عدم ارتداء الملابس الصحيحة وعدم الرقص والكلام بالطريقة الصحيحة، كلها تسبب الإحراج «ومعه خطر الإقصاء والرفض من الآخرين» (ص 8).

ولا يقتصر أثر هذا الخوف على توليد الطاعة في النساء، واستخلاص موافقتهن على أن «(يهبطن) إلى مستوى الأشياء»، بل إنه يحوّل النساء الأخريات إلى منافسات وحكام عليهن. فقد اتخذت صديقاتهن في الحفل موقع «أقسى النقاد، وصرن مصادر محتملة للإقصاء» (ص 9). ولأن الأولاد خشوا أن يتم إقصاؤهم على أساس أنهم يتصرفون مثل إخوة البنات المزعجين، فقد آلت إلى الصديقات سلطة الحكم على مظهرهن من حيث مسايرته لمثال الجمال المحدد ثقافياً من عدمه. كان ذلك بسبب «التاريخ الثقافي» للبنات اللاتي استبطنّ النظرة الذكورية ـ فتعلمن ما يجعل المرأة «جميلة» من مجلات المراهقين وغيرها من الأشكال الثقافية (ص 17)[9]. تقول آمي روسيتر: إن لحظة الانتقال هذه مؤلمة للمراهقات، ولا يمر بها الأولاد، الذين يعدون الحفل مكاناً يتعلمون فيه ويمارسون السلوك «الرائع» (الرّوش)* (ص 12 ــ 13). وهي مؤلمة للبنات، إذ «يمكن تفسير الانشغال بالمظهر بأنه محاولة عكسية الأثر للإمساك بزمام موقف ضاعت فيه السيطرة الجسدية مع قبول البنت فكرة تحويلها إلى شيء» (ص 16). ولا يمكن أن تصل امرأة إلى المثال (فحتى العارضات يشعرن أنهن دونه)[10]. وهكذا تبدأ خبرة تستغرق العمر كله، تحاول فيها الوصول إلى المثال الأعلى وتخفق في ذلك، وما يعقب ذلك من كراهية الذات، وانخفاض تقدير الذات الذي يجثم فوق صدر نساء كثيرات في الثقافة الغربية.

«للنظرة الذكورية» أنواع عديدة؛ فهناك «السيناريو»[11] الثقافي الذي تروَّج له صور المرأة الأكثر إرضاءً للرجل، وهي تصورات يفرضها الرجال والنساء على النساء (والنساء على أنفسهن وعلى غيرهن). وهناك النظرة الذكورية الفردية التي يصاحبها صفير وحملقة وصيحات وأحياناً تحرش. ولهذه الأشياء جميعاً آثار تضر بجسد المرأة وبتقدير الذات لديها، ويعد تغيير ذلك وتدميره جزءاً مهماً من المشروع النسوي. ولكن النسويات يختلفن حول طبيعة النظرة الذكورية وكيفية علاجها؛ هل هي فطرية؟ هل هي من نتاج المجتمع؟ وإذا كانت الثانية، فكيف نعيد عملية التطبيع الاجتماعي للرجال؟ يؤيد أغلب النسويات فكرة النتاج الاجتماعي وعملية التغيير

* تعبير **cool** بالإنجليزية الذي قد يستخدم في الحديث بالعامية من دون ترجمة: «كوول»، هو تعبير عامي إنجليزي، والأقرب إليه كلمة «رِوِش» في العامية المصرية (المترجم).

الاجتماعي، وليس غير النسويات الراديكاليات والنسويات الثقافيات (وهن أقلية) يدعون إلى نوع من الاختزالية الجوهرية الجنسية، وإلى تغيير اجتماعي قائم على الاحتفاء بهذه الطبائع المختلفة.

ولا يقتصر الخلاف على أسلوب القضاء على هذه النظرة، بل يشمل كذلك سبب المشكلة؛ فهناك خلاف بين النسويات حول طبيعة تَشْيِيْء النساء؛ إذ يعترض بعضهن على فكرة أن الإعلام والرسم وصور الأفلام هي تشيِيءٌ للنساء، ويصفنها بالسطحية، ويرين أنها خطيرة؛ لأنها تحمل إمكانية فرض الرقابة على حرية التعبير. وقد دافعت عارضات الأزياء ونجمات الصور والأفلام الجنسية عن الصناعة التي يعملن بها وعن مهنهن، وعددن محاولات النسويات تغيير الموضات والصناعات الجنسية «حساسية جنسية» وكذلك سلباً لحق النساء في استكشاف جاذبيتهن الجنسية وعرضها والتفاخر بها، أو مقدمات خطيرة لفرض الرقابة؛ فالمشكلة ليست في صور الجميلات بقدر ما هي في الهدف والقصد من وراء تلك الصور[12].

ومن الواضح أن ناهد مصطفى وسلطانة يوسفالي مقتنعتان بالموقف النسوي القائل بالتَّشْيِيْء والسلعنة. وهما يريان الحجاب مخرجاً من هذه الشراك، وشيئاً يعيد للمرأة إنسانيتها. بالإضافة إلى اعتقادهما بأن الحجاب يزيل الآثار الضارة للنظرة الذكورية عن طريق إبطال عملية تَشْيِيْء النساء، فإن ناهد مصطفى وسلطانة يوسفالي تقولان: إن الحجاب أداة تحرر؛ لأنه ينقذ المرأة من خسائر لعبة الجمال. فلعبة الجمال هي محاولات النساء تمثل صور الجميلات اللاتي يرينهن في كل مكان حولهن.

واستكشفت كل من سوزان بوردو، ونعومي وولف وغيرهما من النسويات العلاقة بين صناعة الأزياء ومستحضرات التجميل التي تقدر بالمليارات، والتي تشجع النساء على تمثل صور العارضات الجميلات، وبين احتمال ارتباطها بمأساة أمراض أنوروكسيا (فقدان الشهية) والبوليميا (الأكل اللاإرادي) (وهي أمراض الاضطراب الانفعالي الذي ينعكس على عادات الطعام)، وجراحات تعديل الجسم التجميلية الخطيرة. وليس من العسير إثبات أن الثقافة الغربية تروّج لصورة موحّدة للمرأة المثالية تقاس بها كل

النساء و«يصححن» أنفسهن على أساسها[13]. ففي كل الإعلانات والأفلام والتلفاز والمجلات، وفي أي مكان توجد فيه صورة أنثى يتم الترويج لصورة محددة للجسد الأنثوي بوصفه المثال. وما من شك في أن هذا المثال تناله التغييرات: فكان المثال في الخمسينيات هو الجسم المثير الممتلئ، وفي الستينيات كان «الجسم النحيف منخفض النهدين مع الشعر المسترسل»[14]. ثم الجسم الأشد نحافة حتى التسعينيات، إلى أن نصل إلى شكل الجسم النحيف ولكنه «أشد تماسكاً ونعومة» [بمعنى أقل ترهلاً][15]. والمقصود هنا، كما يؤكد عدد كبير جداً من النسويات: أن النساء يسعين بجد لتحقيق المثال مهما كان، ومهما كان شكل أجسامهن، ومهما نتج عن ذلك من تدني تقدير الذات، وكراهية الذات، بسبب الإخفاق في تحقيق المثال. (وينطبق هذا بصورة خاصة حالياً حين يضاف للمثال تعديل بسيط أو لمسة إضافية أو يجمع بالفعل بين عارضات مختلفات)[16].

وهكذا تخلص سوزان بوردو إلى أن الثقافات الرأسمالية الاستهلاكية، حيث للمرأة حرية بدنية أوسع، وفرص في التعليم والعمل أكثر من أي وقت مضى على مدار التاريخ، فإن إخضاع النساء يأخذ صوراً مختلفة وأكثر تخفياً. تقول بوردو: إن النظام الاجتماعي الذي يروّج «لاستبداد النحافة» يجعل النساء «مستكينات» ومشغولات بأجسامهن ومحبوسات في حيز لا يسمح للرغبة الأنثوية بالانطلاق (على عكس الرغبة الذكورية)؛ فهي محكومة ومقيدة بالحاجة إلى تحقيق النحافة[17]. ويشير مقال منشور في إحدى المجلات في العام 1999 إلى تنامي مشكلات اضطراب عادات الأكل داخل الجامعات[18]، فعلاقة النساء بأجسامهن تسوء أو لا تتحسن (ويزيد هذا الأمر أيضاً بالنسبة للرجال؛ إذ تعرض أجسامهم كذلك في صورة نموذجية وفق مثال). ومن المتفق عليه الآن أن تدني تقدير الذات وعدم الرضا عن الجسم واضطرابات الأكل وصلت في التسعينيات إلى مستويات وبائية[19]، تؤثر على كل الطبقات والجماعات العرقية وعلى الجنسين[20]. وقد وجد فيرون ـ جيدري وويليامسون اضطرابات في عادات الأكل في «أطفال ما قبل البلوغ، وتفضيلاً للنحافة، وعدم رضا عن الجسم بين أطفال من سن السادسة»[21]. والنساء المسلمات والرجال الذين ينشؤون في الثقافة

الغربية ليسوا محصنين ضد هذه الضغوط السائدة. فالمراهقات يردن اتباع الموضة والالتزام بمثال الجمال كأي فتاة غربية غير مسلمة، (كما يريد الأولاد أن يلتزموا بالسلوك الرائع «الروش»).

وكما تبين الاقتباسات التي سقناها من ناهد مصطفى وسلطانة يوسفالي، فهما مقتنعتان بأن التزام الحجاب معناه السعي للهروب من لعبة الجمال. فارتداء ملابس طويلة فضفاضة وتغطية الشعر يشعران بالتحرر من «رق بندول صناعة الموضة الذي لا يتوقف، ومن غيره من المؤسسات التي تستغل النساء» (قول يوسفالي). وفي الهروب من لعبة الجمال فإنهما تعتنقان رمزاً من تراثهما الإسلامي تعدانه أداة تحرر، وقد يراه غيرهما في سياقات أخرى أداة قهر. وهكذا فباختيارهما الحجاب تبنيان هوية إسلامية، هوية أقلية، في وجه رسائل الثقافة (الغربية) المهيمنة ـ بشأن ضرورة اتباع النساء الموضة في الملبس، وضرورة أن تكون المرأة نحيفة وجميلة. فهما تستخدمان تراثهما الإسلامي، وسيلة لمقاومة هذه الصورة القوية عن الجمال المثالي، ومن ثم التمرد عليها وتقويضها. فالحجاب عند هاتين المرأتين ومن على شاكلتهما من المسلمات إجراء مضاد في الغرب؛ بل إنهن يملكن تصورهن الخاص عن الوعي الزائف. ولنذكر مقولة ناهد مصطفى: «لن تحقق المرأة المساواة بتملك حق كشف ثدييها أمام الناس، كما يحب بعض الناس أن يقنعوها»، وهكذا تقلب النساء الطاولة على هؤلاء النسويات اللاتي يعددن تأييد الشابات للحجاب وعياً زائفاً.

فإذا نظرنا للحجاب من هذه الزاوية نراه يقول: «عاملني كإنسان وليس كائناً جنسياً». فهو أداة لمواجهة جوانب النظرة الذكورية في الثقافة الرأسمالية الذكورية التي نجد فيها أنفسنا. وتشير نعومي وولف إلى أن المرأة التي تعترض على أسطورة الجمال تعاقب بتشريح مظهرها الشخصي. فالنساء إما «أجمل» أو «أقبح» من أن يُصدَّقن. وتواصل وولف كلامها: «وإنَّ رفضنا الإلحاح على كون مظهر المرأة هو «كلامها»، وإنَّ استماع بعضنا لبعض بعيداً عن أسطورة الجمال، هو في ذاته خطوة سياسية للأمام»[22]. وكما تقول ناهد مصطفى: يمكن للمسلمات التزام الحجاب لمجرد كونه فعلاً سياسياً من هذا النوع.

3ـ الحجاب والأنوثة

تقول روج في دراستها للزيّ الشعبي المصري: «في التاريخ الطويل للأزياء الغربية» **من النادر أن تجد طرزاً غير مخصّرة؛ فسحر الزي النسائي يعتمد على إظهار الجسم بصورة جذابة مما يفرض طرازاً محبوكاً وليس فضفاضاً غير مفصّل. ففي المئتي سنة الأخيرة، كانت الطرز الرئيسة غير المخصّرة هي الزي (الفستان) الإمبراطوري الذي كان «الموضة» السائدة في أثناء مدة الإمبراطورية الأولى** (1804 ــ 1814) **في العهد النابوليوني، ثم المظهر الصبياني [ما يسمى] بالمرأة المتحررة في العقود الأولى من القرن العشرين**[23]*.

ومن منظور من تعود إظهار الجسد الأنثوي باعتبار أن هذا هو الشيء الصواب والمقبول («إن كنت تملكينه فتباهي به» هي رسالة شائعة موجهة للنساء في الثقافة الغربية)، فإن «ستره» يبدو خانقاً للأنوثة والجمال. فملابس المسلمات المحجبات التي كثيراً ما تبدو رثة توحي بأن أنوثتهن وجاذبيتهن الجنسية مرفوضة. وأقدم في هذا القسم أربع نقاط لدحض افتراض أن الحجاب يخنق أنوثة المرأة وجاذبيتها الجنسية. بادئ ذي بدء، لا ترتدي النساء الحجاب طوال الوقت، برغم تصوير الأمر على هذا النحو، فليس الحجاب ملبساً خاصاً أو عاماً، بل هو مرتبط بوجود الرجال الأجانب أو غيابهم. فعندما تكون المرأة وسط نساء فقط أو مع رجال أسرتها (محارمها) فإنها لا ترتدي الحجاب. وكذلك، إن أمنت نظرة الرجال الأجانب، فلا حاجة لها بالحجاب. وتكون إحدى المفاجآت السارة في إجازة الصيف أن تجد المرأة شاطئاً معزولاً أو بحيرة تستطيع السباحة فيها من دون الحجاب. ثانياً، توصى المرأة بارتداء أجمل الثياب، وبالتزين وأن تزهو بجسدها لنفسها ومع زوجها. ثالثاً، لأن أغلب العلاقات الاجتماعية الودية تكون على نحو منفصل عن الرجال، فكثيراً ما تجتمع النساء دون حضور الرجال، وتحب نساء كثيرات أن تضع مساحيق التجميل في هذه اللقاءات وأن ترتدي الثياب الجميلة الفاخرة. ومن الأحداث المهمة في هذا الصدد حمام العرس، حيث

* المرأة العصرية أو المتحررة (**Flapper**) وصف لشابات في نهاية عشرينيات القرن العشرين كن يرتدين ثياباً قصيرة، ولهن شعر قصير ويعتنقن أفكاراً عددنها عصرية جداً. وقد تطلق هذه التسمية على المرأة التي لا تلتزم العرف أو السلوك المقبول (المترجم).

obeikandi.com

ترتدي النساء أجمل ثيابهن. ويقضي بعض النساء وقتاً طويلاً في هذه المناسبات يزين بعضهن أيدي بعضهن برسومات الحنة، كما يشيع الغناء والرقص فيها.. ولقد رأيت عجائز يصفقن ويرقصن ويهززن أردافهن، ويشجعن العروس الخجول المتحفظة على أن تهز أردافها بقوة أكبر. رابعاً، ثمة أوجه للشبه بين الحجاب وإستراتيجيات نسائية أخرى للتعامل مع نظرة الذكور في الفضاء العام لا بد أن تبرز.

لقد لاحظ عدد من علماء الأنثروبولوجيا أن النساء يكن أكثر استرخاءً واستمتاعاً في التجمعات النسائية. وليس هذا من قبيل المفاجأة، إذ يرى البحث النسوي الغربي أن الرجال يسيطرون على الحديث في التجمعات المختلطة والنساء أقل حديثاً. ونورد فيما يأتي ملاحظات كارلا مخلوف عن نساء صنعاء:

في مجتمع يتميز بالفصل الصارم والتحديد الحاسم لأدوار الجنسين، يتوقع المرء أن يجد سلوك النساء بالغ التحفظ، والحق أن من أبرز سمات مجتمع النساء في اليمن جو الارتخاء الذي يبدو سائداً في أوقات العمل وأوقات الفراغ[24].

فالنساء يملكن فضاءً خاصاً تتضاءل فيه سيطرة الرجال، وهو يمثل مصدراً للدعم بل والقوة، وإن أي أيديولوجية ثقافية تصور مشاركة النساء في المجتمع بوصفها غير ذات أهمية، لا تؤدي بالضرورة إلى بخس الذات لدى النساء. بل إن الواقع الذاتي لحياة النساء قد يناقض هذه النظرة. والحق أن الغريب الذي يتوقع أنماطاً أنثوية مقيدة ومكبوتة نتيجة الانعزال سيدهشه أن يجد نساء صنعاء بلا توتر أو تقيد قد نجده لدى النساء في ثقافات أخرى، فلا يكاد يوجد تجمع نسائي إلا كان مبهجاً ويدعو للاسترخاء[25]... **(ترتدي النساء أجمل ثيابهن من أغلى أنواع المخمل والملابس المطرزة فيتحدثن ويأكلن ويرقصن ويَلُكن القات)**[26].

وتصف دراسة أوني ويكان للنساء الصحاريات في عمان سلوكاً مشابهاً. فقد كان الجنس هو موضوع الحديث المفضل في تجمعات النساء، تصاحبه النكات والتمثيل الصامت:

يشاكس النساء بعضهن بعضًا دائماً بشأن قدر اشتهاء زوج المرأة لها، وقدر استمتاع كل واحدة بالجماع، ويمثلن بالإشارات والأوضاع كيف تؤدي المقصودات بالمشاكسة عملية الجماع. فهناك نمط غريب مدهش وهو أن الحياة الزوجية تعامل بحصافة بالغة تجعلهن يتجنبن أي إشارة إليها، ولكن ذلك لا ينطبق على مسألة الجاذبية الجنسية، فهذه الأمور هي موضوع لنكات مفتوحة وذات طبيعة حميمية جداً ـ ولكنها في العموم فكاهية مبالغ فيها، ومن الواضح أنها مختلقة ولا تحمل أبداً فظاظة أو شراً[27].

وتبرز هنا استقلالية عالم النساء. تذكر كارلا مخلوف: أن الرجل إذا أراد دخول بيته في مجتمع صنعاء، فعليه أن ينبه ويرفع صوته بكلمة: «الله» وهو يرتقي الدرج؛ حتى يعطي النساء فرصة للتستر قبل وصوله»[28]. جعلت هذه الاستقلالية ليلى أحمد تتندر بأن السعودية، وهي مجتمع يلتزم الفصل بين الجنسين التزاماً صارماً، هو خير تجسيد لعالم النسويات الذي يدعو لإقامة مجتمعات خالصة (كوميونات) للنساء. «على هؤلاء النسويات الأمريكيات صاحبات عقلية المجتمع المعزول أن يذهبن فوراً إلى المملكة السعودية (إذا استطعن إقناع السلطات السعودية بإعطائهن تأشيرات دخول) ليس بهدف دراسة السعوديات كما يدرس العلماء الحشرات؛ وإنما ليكن تلميذات وتابعات في عالمهن النسائي»[29]. وهي تقول ذلك ساخرة بالطبع، بهدف تصحيح المفهوم الغربي المشوه عن كون النساء المعزولات مكبوتات ومحتقرات. وهي تدرك أن العالم النسائي المستقل ليس بديلاً عن النفاذ إلى مراكز صنع القرار في المجتمع. وليس الغرض من تقديمي هذه الأمثلة أن أقول كلاماً إيجابياً عن الانعزال، بل لأؤكد أن مجرد تحجب المرأة في الفضاء العام أو أمام الرجال الأجانب لا يعني أنهن لا يملكن الوسائل لكشف أنفسهن والتباهي بجمالهن واستخدامه والاستمتاع به.

عندما رأت فيرونيكا دبلداي النساء في هيرات بأفغانستان (قبل حكم طالبان) يرتدين أجمل ثيابهن ويستمتعن باستعراض أنفسهن بعضهن لبعض، علقت بأن ذلك يبدو «غريباً» بالنسبة «لنا» (الغربيات)[30]. فالسؤال الضمني هو: «لماذا يزعجن أنفسهن بعناء ارتداء أحسن الثياب برغم أن كلهن نساء؟ ما الغرض من ذلك إذا لم يوجد

رجال؟ والسؤال هنا كاشف للغاية، أليس كذلك؟ لأنه يفترض أن يكون «غرض» النساء من ارتداء أحسن ثيابهن واستعراض جمالهن هو الرجال، أي النظرة الذكورية.

تولي الثقافة الغربية أهمية كبرى للجاذبية الجسدية للجنسين. ويقدم البحث الاجتماعي الأدلة على أن «من يتمتعون بالجاذبية من الناس يلاقون قدراً من القبول في جوانب شتى ـ مثل الكفاءة الاجتماعية والتكيف النفسي والكفاءة العقلية ـ أكبر مما يلاقيه من هم أقل جاذبية»[31]. وقد وجد الباحثون أن النمط الشائع «كل ما هو جميل خير» موجود في الواقع. فقد وجدت باميلا ريجان أن الناس تميل أكثر إلى قبول فكرة الحكايات الخرافية بأن «المستقيم أخلاقاً كامل بدنياً»، ويضمن هذا المزيج تفضيلاً يظهر في السعادة في العلاقات والمكانة الاجتماعية، أما الفاسدون أخلاقاً ففيهم تشوهات أو عيوب أو غيرها من الصفات الاجتماعية غير المرغوبة، ولذلك فهم يُحرَمون من الموارد المتاحة لمن يتمتعون بالجاذبية»[32].

تنتقد النسويات هذا الاهتمام بتقييم النساء على أساس مظهرهن وإهمال جوانب أخرى في شخصياتهن، ولكن الرسائل الاجتماعية عن جمال النساء لا تزال تسيطر على الناس. وقد أوضح المسح الذي قامت به كاش على 122 طالبة جامعية أن التمسك بمُثُلٍ نسوية لا «تحمي» النساء من كونهن حاملات رسالة جسمانية ضعيفة: «قد تكون الرسائل الخاصة بأهمية مظهر النساء عامة، وأهميتها بالنسبة لإقامة علاقات حميمة مع الرجال واستمرارها متجذرة ومعززة اجتماعياً لدرجة أن اعتناق أيديولوجية نسوية قد يكون ضعيف الأثر على هذه المعتقدات الجوهرية. ففي الواقع، قد تعد النساء هذه الأفكار مجرد «قضايا منفصلة»[33] ففي دراسة كارمن كاير عن النساء الهندوباكستانيات في تورونتو، رأى النساء اللاتي قابلتهن الباحثة أن هذا التركيز على جمال النساء يهين النساء، ويجعلهن متنافسات يعتمدن على الرجال في اكتساب إحساسهن بالذات وبالهوية. وقد عبّرت شريفة جيداً عن هذه الفكرة:

> **«لي صديقة ترتدي ملابس بالغة الإثارة؛ فهي تكاد لا ترتدي شيئاً... وما إن ترتدي هذه الملابس وتجد رد فعل [من رجل] حتى تقول: «حسناً، أبدو جميلة». بل إنها تسأل إذا ما كان الرجال يأكلونها بأعينهم... أليس هذا مثيراً للشفقة؟ أهكذا تحكمين على جمالك، بردود أفعال الرجال؟... أما ما تقوله المسلمات**

تلقائياً، لا سيما المحجبات منهن،... فهو: لا يهمني رأيك في، ولا ينبغي أن تحكم إن كنت جذابة أم لا، فهذا ليس من شأنك... وإنني لا أقدر نفسي ولا أقيس جمالي برد فعلك، بل بنظرة الله لي... فهو وحده، سبحانه وتعالى، الذي أبغي رضاه. وعندما أفعل ذلك، أشعر بأن العالم كله ملكي وبين يدي»[34].

وكما تقول إحدى صديقاتي المسلمات: «الحجاب طريقة لتكريم أنوثة المرأة؛ لأنه يجعل جمالها غير متاح للاستهلاك العام». ولنناقش الآن الحجاب في سياق خبرة الغربيات في الفضاء العام المختلط.

تعلم الغربيات أن هناك مشكلات تتعلق بوجود الأنثى في الفضاء العام، فمقابل كل رجل متحضر هناك آخرون لا يتوقفون عن الصفير للنساء والتحرش بهن (فضلاً عن الاغتصاب وهتك العرض). وإلى جانب عمل النساء على تغيير أخلاق الرجال، فإنهن أيضاً يستحدثن أساليب متنوعة يحيّدن بها أنفسهن جنسياً؛ حتى يسهلن على أنفسهن الدخول إلى الفضاء العام[35]. ومن ذلك ارتداء بزة المرأة العاملة المهنية، أو معاناة نتائج اضطرابات عادات الأكل من فقدان الشهية أو الأكل اللاإرادي، أو حلاقة شعر الرأس*.

عندما بدأت النساء دخول سوق العمل بأعداد هائلة في السبعينيات، وجدن أن «النساء اللاتي يرتدين بزات العمل يزيد شعورهن بأنهن يعاملن معاملة الموظفات التنفيذيات بمعدل يزيد مرة ونصف عن غيرهن، ويقل شعورهن بأن الرجال يتحدون سلطتهن بمقدار الثلث. أما الملابس التي تبرز الجاذبية الجنسية ـ للرجال أو النساء ـ فكانت تخفض من مكانة المرء في العمل»[36]. كان المسح الذي أجراه جون مولوي قد خلص إلى هذه النتيجة، ثم كتب الرجل كتاباً صار من أكثر الكتب مبيعاً، هو «زي المرأة لتحقيق النجاح» (1977). حققت البزة التي روّج لها مولوي مبيعات هائلة، ولكن ما توقعه حدث، إذ لم ترضَ صناعة الموضة عن هذه البزة الجديدة. وقد قال مولوي لقرائه: إن صناعة الموضة «ستنزعج» من اتخاذ النساء هذا «الزي الموحد»

* قد تحلق بعض النساء الغربيات شعورهن؛ احتجاجاً على تحرش الرجال أو ليبدون غير جذابات لهم، أو إعلاناً عن استقلاليتهن (المترجم).

في العمل. وسيرى القائمون عليها أنه يهدد هيمنتهم على النساء، وسيكون كلامهم هذا صحيحاً»[37]. تقول كلٌ من سوزان فالودي ونعومي وولف: إن جزءاً من رد الفعل الصاخب ضد النساء العاملات كان رد الفعل العنيف على هذه البزة. فقد تعرض مولوي للهجوم في منتصف الثمانينيات لترويجه «لربطة العنق الفراشية الصغيرة الفظيعة» ونشر «تلك البزة الكحلية المملة»، ولجعله النساء يبدون مثل «رجال مقلَّدين»[38]. ومع منتصف التسعينيات نرى تنوعاً أكبر في الموضة، بحيث «دخلت» التنورات الطويلة والقصيرة. مع ذلك، كما تقول وولف: كان على النساء السير على حبل رفيع بين متطلبات مظهر العمل الجاد والمظهر الأنثوي في الوقت ذاته، وكان على النساء «بذل المزيد من الجهد ليصبحن جميلات، والمزيد من الجهد حتى يأخذهن المحيطون مأخذ الجد»[39].

ليس تغيير الملبس لتيسير ولوج المرأة إلى الفضاء العام المختلط بغريب على النساء غير المسلمات، ولو أنهن بطبيعة الحال لن يتخذن الحجاب. ويعبر المقتطف الآتي بدقة عن جوهر هذا الجانب في الحجاب، برغم أن كاتبته امرأة غير مسلمة قد ترى في الحجاب قهراً. فقد أشعلت إحدى حوادث التحرش الجنسي جدلاً واسعاً في أستراليا في العام 1992، وكتبت إحدى الروائيات عن هذه الحالة متفكرة في توابعها. وهي هنا تحاور طالبة جامعية عن حفلات الرقص في الجامعات، وقد قيل: إن الحادثة وقعت في إحدى حفلات الرقص الجامعية:

> **ذهبت ذات مرة إلى حفل أورموند الراقص... وكان الحفل مقاماً في ملهى مترو الليلي ـ مكان فظيع، كرهته. كنت أرتدي تنورة سوداء قصيرة وحذاءً ذا كعبٍ عالٍ ـ وقد أدهشتني الطريقة التي بدأ الشباب الذين أعرفهم طوال العام يعاملونني بها فجأة. فيما بعد تخلصت من تلك الملابس، ليس لأنني لا أريد أن أكون جذابة أو مثيرة، بل لأنني لا أريد تلك الاستجابة من الناس الذين لا أود أن أبدو كذلك أمامهم. بعض النساء، ولا أفهم لماذا، لا يشعرن «بقيمتهن» إلا عندما يعاملن بهذه الطريقة. وقد كنت دائماً أنجح في التعامل مع مسألة التمييز الجنسي في أورموند. «فأنا أرتدي الملابس التي تضمن لي المعاملة التي أريدها»[40].**

تبرز الجملة الأخيرة نظرية الحجاب التي أقدمها: في الثقافة الرأسمالية الاستهلاكية، حيث يخاطب جمال المرأة النظرة الذكورية، يؤثر الملبس على الطريقة التي يعاملك بها الناس (لاسيما الرجال). فقد غيرت الفتاة أسلوب ملبسها؛ حتى لا تثير الاهتمام الجنسي الذكوري الذي لا تريده. والحجاب هو نفسه هذا اللون من الملبس.

تقول بعض النسويات اللاتي يتعاملن مع نساء مصابات باضطرابات في عادات الأكل: إن النساء يتجهن إلى سلوكيات غذائية مَرَضيّة حتى يحيدن أنفسهن جنسياً. فالأكل اللاإرادي، وفقدان الشهية، قد يجعلان المرأة شديدة البدانة، أو شديدة النحافة، حتى لا تبدو مرغوبة لدى الرجال. وتعتقد سوزي أورباك، استناداً إلى خبرتها في التعامل مع النساء التي تعاني مشكلات الأكل اللاإرادي، أن كثيراً من هؤلاء النساء يتحولن إلى البدانة؛ حتى تستبعد جاذبيتهن الجنسية الأنثوية: «فاستعراض جاذبيتهن الأنثوية يعني إلغاء إنسانيتهن»[41]. فقد وجد هؤلاء النساء أن البدانة توقف التعامل معهن بوصفهن كائنات جنسية، لا سيما في العمل، كما قالت إحدى النساء «جعلتني البدانة واحداً من الرجال»[42]. وترى أورباك أنه «عندما تكون النساء العاملات نحيفات، أي حين تبدأ في اتخاذ مظهر الأنثى المثالية، يجدن من زملائهن الذكور معاملة عابثة: «تلك العاملة النحيفة الجذابة التي لا تتمتع بالكفاءة»[43]. وتقول: إن المصابات بفقدان الشهية أيضاً يتجهن للنحافة الشديدة لتحقيق الأثر نفسه: «إن التقييم الفوري النهائي السريع الذي يقوم به الرجال والنساء يضع المصابات بفقدان الشهية (والبدينات) خارج فئة الكائنات الجنسية[44]. فالدهون التي تكتسبها البدينة «محاولة غير واعية لإخفاء انحناءات جسدها تماماً مثل محاولات المصابة بفقدان الشهية أن تخفي هيئتها عن طريق التخلص من مادتها الأساسية»[45].

وهكذا استحدثت النساء إستراتيجيات متنوعة لتحييد أنفسهن جنسياً، ولتيسير دخولهن إلى الفضاء العام. ومن هذه الإستراتيجيات ما ظهر في الثمانينيات من ظاهرة حلق بعض النسويات شعورهن. أما الطريقة التي تفضلها النساء المسلمات

فهي اتخاذ الحجاب وسيلة لمواجهة هذه الألوان من الضغوط الاجتماعية. تذكر شريفة زهور في دراستها عن العودة إلى الحجاب في مصر أن «حرمان الرجال من إمكانية التعليق على قوامهن أو «طمس عيون الذئاب» كان يمنح الشابات [المحجبات] اللاتي حاورتهن بعض الرضا»[46]. وتعد هؤلاء النساء، وغيرهن من المسلمات، أن الحجاب إستراتيجية ذات فوائد، فهو الأسلوب الأصح، إذ يسمح للمرأة أن تأكل دون حاجة لإحصاء السعرات الحرارية ودون أداء تمرينات رياضية إضافية. كما أن الحجاب ليس إجراءً مغالياً مثل حلق شعر الرأس، فعند حلق الشعر لن تستمتع المرأة بالشعر الطويل حتى يعود فينمو مرة أخرى، أما الحجاب فيسمح لها بهذه المتعة، غير أنه ببساطة يقصره على الفضاء الخاص. والحجاب بالنسبة للنساء العاملات، صورة إسلامية من صور بزة المرأة المهنية العاملة، أي رسالة إلى الرجال بأنهن جادات بشأن عملهن.

خلاصة ذلك: أن الحجاب لا يخنق الأنوثة ولا الجاذبية الجنسية، وإنما يقنن مكان كشف هذه الأنوثة وتلك الجاذبية الجنسية وموضع تأثيرها. ففي البيت وفي التجمعات النسائية ومع الزوج تستطيع المرأة المسلمة أن ترتدي أجمل ثيابها وتتدلل بجمالها وجاذبيتها وتكشفهما وتستمتع بهما. فالجمال والجاذبية الجنسية شأن خاص، لا ينبغي أن يستمتع بهما الرجال الأجانب. ولا يقهر المرأة عدم إمكانية استعراض جسدها لنظرة عموم الناس، فهي بالحجاب تحافظ على خصوصية أمورها الخاصة، وبهذا لا يكون الحجاب قيداً على أنوثة المرأة، بل أداة تحرر من الحكم عليها بالمقارنة بمثال محدد، بل مستحيل، للجمال، أو بنساء حسناوات حقيقيات. فهو يسمح لها بأن تعيش بما منحها الله من جسد من دون مستحضرات تجميل أو تعديل جراحي أو حمية أو غير ذلك؛ فهي تتحرر من تفحص العامة لقوامها وجسدها؛ حتى تتفرغ لوضع طاقاتها في قنوات منتجة وليس في محاولات دائمة لجعل نفسها «جميلة». ويمكنها أن تحتفي بأنوثتها وجاذبيتها الجنسية خارج الفضاء العام، وأن تستخدم الحجاب وسيلة لدخول هذا الفضاء، وهي متحررة من الاقتحام الذكوري لذاتها.

4ـ الحجاب والجاذبية الجنسية واختزال الجوهر

تفترض كل النسويات الليبراليات ونسويات ما بعد البنيوية* أن السلوك الإنساني والشهوة طبيعة من صنع المجتمع، وأن أي إستراتيجية من شأنها تكريس الاختلافات بين الذكور والإناث، مثل الحجاب، هي موضع شك. فعندما قالت ليلى حسيني وأرلين ماكلويد: إن الحجاب يمكن أن يكون أداة تحرر بالطرق التي وصفتها ناهد مصطفى وسلطانة يوسفالي، ولكنه لن يؤدي إلى التحرر النهائي للنساء، كانتا تستندان إلى جوانب نظرية التنشئة الاجتماعية وافتراضاتها التي تقول: إن المنظومة الأبوية الذكورية استخدمت اختلافات زائفة بين الذكور والإناث حتى تبقي على إخضاع النساء، وإن كل شيء من شأنه قبول اختلاف جوهري بين الذكور والإناث (أي الحجاب) فهو قهر للنساء. يعتمد هذا النقد للحجاب على افتراضات ليبرالية عن الطبيعة الإنسانية ومعنى الجاذبية الجنسية والتحرر والقهر والمساواة. وبرغم تشابك هذه الخيوط، فلا بد من فحص كل منها منفرداً؛ حتى نفهم كافة دقائق هذا النوع من النقد لتغطية الجسد.

سأبدأ بتقرير أن ارتداء الحجاب قد يسلّم على مستوى ما بنوعٍ من الاختلافات الجوهرية الثابتة بين الذكور والإناث. فللرجال في الإسلام شروط للباس تختلف عن تلك الخاصة بالنساء (ولا توضع في بؤرة اهتمام أي خطاب إسلامي أو غير إسلامي كما في حالة الحجاب). ويورد جمال بدوي في كتابه: «زي المرأة المسلمة طبقاً للكتاب والسنة» قواعد للباس الرجال أيضاً: «لا بد من ذكر أن الشروط الأساسية لزي المرأة المسلمة تنطبق على زي الرجل المسلم مع اختلاف في الدرجة فقط»[47]. أي إن الملبس ينبغي ألا يكشف أو يصف أو يشف مابين السرة والركبة، و«لا ينبغي أن يصمم على نحو يجذب الانتباه مع تطبيق قاعدة الحشمة وتجنب «الخيلاء» على المؤمنين جميعاً، رجالاً

* تنقض مدرسة ما بعد البنيوية (وتحتها التفكيكية) ادعاءات الموضوعية العلمية والشمول الموجودة في البنيوية. ويؤكد مفكرو التفكيكية على عدم استقرار المعاني والتصنيفات الفكرية بما فيها ما يخص الإنسان. وتسعى التفكيكية إلى تقويض أي منظومة فكرية تدّعي العمومية الإنسانية عبر الزمان والمكان وتصفها بالشمولية. ويحبذ التفكيكيون تعدد المعاني على نحو غير هرمي، أي يرون أن المعاني تتصف بحرية الحركة، فهي لديهم غير مستقرة وغير محسومة (المترجم).

ونساءً»، كما يحرّم على الرجال لبس الحرير والذهب. ومع ذلك يبقى السؤال: لماذا يختلف زي الرجال كثيراً [عن زي النساء]؟ وما الذي يفسر اختلاف الزي إلا افتراض جوهري باختلاف الذكور عن الإناث؟

ولا يقدم القرآن نفسه تفسيرات مفصلة لشروط الحجاب، ولا لاختلافات الزي بين الذكور والإناث. ولكنه يقدم تفسيرين موجزين قد يكون فيهما الكفاية. يقول الله تعالى في سورة الأحزاب: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ (الأحزاب: 59) أي أن القرآن يقول: إن في الفضاء العام شيئاً يرتبط بعلاقات الذكور والإناث يمكن أن يؤذي النساء، وإن إضفاء الجلاليب قد يخفف هذا الأذى، ولكن إذا قرأنا آية سورة النور مع آية سورة الأحزاب أعتقد أننا سنجد القرآن يشير إلى ظاهرة النظرة الذكورية التي حللناها سابقاً، ومن ثم فهو يثبت أهمية مسألة النظر في الطبيعة الجنسية الذكورية: ﴿قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡ﴾ (النور: 30)، ويأمر النساء بذلك في الآية اللاحقة ﴿وَقُل لِّلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَغۡضُضۡنَ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِنَّ وَيَحۡفَظۡنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ (النور: 31). ويعلّمهن أن خير وسيلة لذلك هي «ضرب الخمار على الجيوب». وإذا قُرئت الآيتان معاً، وجدنا في رأي أن القرآن يقول: إنه مع غض البصر يوجد شيء في ارتداء الملابس الفضفاضة يعين النساء على حفظ عفتهن إزاء نظرة الذكور. (أتحدث عن «الفضاء العام» لأنه لا شك الموقف الذي يقتضي التحجب، برغم أن الحجاب، كما ذكرت سابقاً، ليس زياً يرتبط بعام أو خاص، فالأمر لا يتغير إذا دخلت المرأة بيتها، فالمهم هو وجود الرجال الأجانب من عدمه).

أما خطورة اختزال الجوهر فتظهر عندما تسبغ القداسة على ثنائية «الذكر والأنثى الأعلى والأدنى» ثم تستخدم، كما حدث عبر قرون لحرمان النساء حقوقهن الأساسية في الحياة والتعليم والتصويت وما إلى ذلك. ولكن القرآن لا يثبت هذه الأنواع من الاختلافات بين الذكور والإناث، بل إنه، كما أرى، يعلن التطابق الجوهري بين الذكور والإناث، كما في الآية الأولى من سورة النساء التي تبين أن الرجال والنساء خلقوا من نفس واحدة، أي طبيعتهم واحدة، أو الآية (72) من سورة (ص) التي توضح أن الله تعالى حين خلق الإنسان (ذكراً وأنثى) فإنه نفخ فيه من روحه. كما أن القرآن

يعلن أن الله خلق من كل شيء زوجين: ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾. (الذاريات: 49) ثم كان التمايز بينهما: ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ ﴾ (آل عمران: 36). «يقرر القرآن»، إذاً، كما تقول أمينة ودود محسن: «إن أصل البشر جميعاً نفس واحدة، هي جزء من منظومة زوجية: أي النفس وزوجها. بكلام صريح، هذان الزوجان الأصليان هما الرجل والمرأة»[48]. أما ما ينسب من صفات خاصة لكل زوج منهما فليس محدداً صراحة، وتقوم الثقافات بذلك التحديد معتمدة على مجرد التكهن.

تقول الفئة الكبرى من الليبراليات والنسويات والمنتميات لما بعد البنيوية وغيرهن من الملتزمات بفكرة أولوية أثر الثقافة في تنظيم السلوك الإنساني: إن التطبيع الاجتماعي هو مفتاح جعل الفضاء العام آمناً للنساء، والمطلوب هو تغيير مسلك الرجال[49]. وإن أي شيء يقصر عن تغيير الرجال سلوكهم (أي أن تتصرف النساء بأي قدر من التحفظ مثل ارتداء الحجاب) فيه قهر للنساء. كذلك فإن تحرر النساء معناه قدرة النساء على أن يفعلن ما يحلولهن، وأن يكن ما يردن، وأن يعبرن عن أنفسهن بالطريقة التي يردنها وأن يعاملن باحترام من قبل الرجال (في حدود «معقولة» أي لا تؤذي الآخرين) وفيما يأتي ما تقوله نعومي وولف وهي نسوية ليبرالية:

«يتحقق انتصار المرأة عندما تسمح لنفسها ولغيرها من النساء أن تأكل، وأن تمارس الجنس، وأن تشيخ، وأن ترتدي الرداء السروالي (الأوفرول) أو عصابة رأس من البلاستيك أو عباءة أوبرالية مستعملة أو أحذية قتالية، أن تتغطى كاملة أو تخرج شبه عارية، أن نفعل كل ما نختار اتباعاً لقوانين الجمال الخاصة بنا أو تجاهلاً لها. ستنتصر المرأة عندما تشعر أن ما تفعله أي امرأة بجسدها، دون قهر أو إكراه، شأن خاص بها»[50].

تدعو نعومي وولف إلى أن يكون للنساء حرية ارتداء ما يشأن؛ وتعني هذه الدعوة النسوية الليبرالية نفي أي صفة جوهرية للأنوثة في الفضاء العام. وعندما تواجه النسويات الليبراليات مسلمات يؤمنّ بأن الأنوثة صفة ترتبط بخبرات النساء في الفضاء العام، فإنهن يستنتجن أن المسلمات يؤيدن رؤية ذكورية قبل - حداثية للمرأة،

وتقدم كارلا مخلوف نساء صنعاء نموذجاً لهذا الموقف؛ إذ ترحب باختفاء النقاب بوصفه اختفاءً للتقاليد وتطوراً نحو حداثة (متحررة):

أي لم يعد الجنس يتغلغل في كل لقاءات الذكور بالإناث، بل يتجه لأن يكون عنصراً واحداً في إحدى العلاقات التي تجمعهما، يمكن عزله واستبعاده مؤقتاً، إن لم يكن نهائياً. ويمكن من حيث المبدأ عزل العناصر اللازمة لكل موقف بذاته، فإذا كان منطق الحجاب يعتمد جزئياً على أنه أداة حماية تفصل «جنس الرجال» عن «جنس النساء»، فإن ظهور العلاقات المشروطة بالأدوار بين الجنسين من شأنه أن يسلب الحجاب جزءاً من أهميته[51].

تؤيد بات ميول وديان بارثل «إيمان [الليبرالية] بحقوق الفرد» وتتطلعان إلى «عالم يتساوى فيه الجميع في الحقوق ويحترم الجميع فيه حقوق كل منهم تجاه الآخر على نحو متساوٍ»[52]. ويبرز هذا التأييد رأيهما في أن اختيار ارتداء الحجاب لا يجعل المسلمات من الساعيات إلى إلغاء «التنميط الجنسي في المجتمع كله»[53]، بل من معززات الفواصل بين الجنسين: «إن الاختفاء [الذي يتيحه الحجاب] للمرأة في فضاء الرجال العام، يعزز رمزياً كون البيت هو الفضاء المناسب للنساء»[54]. وقد انتقدت آرلين ماكلويد استخدام المصريات الحجاب إستراتيجية تحييد جنسي في العمل، لأنه أخفق في نشر فكرة حيادية الجنسين، مما أعطى إشارة بأن أماكن العمل محمية للرجال، برغم أن غالبية من فيها من النساء. وترى ديبرا ريس أن «الحاجة للتحجب» ستختفي عندما يشمل مفهوم الفضاء العام النساء بشكل تلقائي[56].

ويوازي الافتراضات الليبرالية عن حيادية الجنسين ما تأتي به [مذاهب] ما بعد الحداثة من شكوكية النوع»[57]*. ويعتمد مفهوم شكوكية النوع على التفكيكية وما بعد البنيوية في نقده للنظرية النسوية بسبب فرضها ثنائية الذكورة والأنوثة على النساء (والرجال)، وهي ثنائية قاهرة تماماً مثل الثنائية الذكورية القديمة. والهدف هنا تكوين ذات غير محددة متعددة المنظور لا يقيدها أي شيء مادي، سواء كان عرقاً أو جنساً[58]. وتصيب سوزان بوردو في انتقادها «شكوكية النوع»

* شكل من أشكال إنكار وجود اختلافات أصيلة أو طبيعية بين الذكر والأنثى (المترجم).

عن طريق التذكير بأن الجسد لا بد له من مكان ينتسب إليه، وإن رغب أن يكون ذاتاً غير محددة. وتقول: أما في الوقت الراهن فالجسم الأنثوي ينتسب إلى فضاء عام ذكوري. وتؤكد أن النوع يظل تصنيفاً عاماً مفيداً، وهو يعني وجود شيء مشترك يخص الموقع النسبي للجسد الأنثوي الذي يربط النساء بالنساء على نحو لا تغيره مختلف الجوانب الأخرى في هوياتنا، ولا يربط النساء بالرجال، مهما وجد من تشابهات أخرى بينهما.

وقد خلص الباحثون في التحرش الجنسي بمكان العمل إلى أن الرجال يعدّون النساء «نساءً» أولاً قبل أن يكنّ «زميلات». وقد أجرت هيلين واطسون لقاءات شخصية مع رجال حول التحرشات الجنسية خلصت منها إلى أنه «بعد نحو عقدين من دراسة فارلي «الابتزاز الجنسي» تظل خلاصتها عن كون الرجال يرون العاملات كائنات جنسية لا موظفات، استنتاجًا دقيقًا فيما يتعلق بنتائج هذا البحث [بحث هيلين واطسون][59]. وتشير نعومي وولف نفسها إلى أن «مسحاً أجري على 114 طالباً جامعياً قدم هذه الاستجابات:

- **أحب أن أسيطر على امرأة** 91,3%.
- **استمتع بالغزو الجنسي** 86,1%.
- **تبدو بعض النساء كأنهن يطلبن الاغتصاب** 83,5%.
- **استثار حين تقاوم امرأة الجنس** 63,5%.
- **من المثير استخدام القوة لإخضاع امرأة** 61,7%[60].

وتقدم مجلة إم. إس لعام 1981 مسحاً لحوادث الاغتصاب التي تحدث في المواعيد الغرامية في حرم الكليات، شمل سبعة آلاف طالب وطالبة في 35 كلية. وكانت نتيجته إحصاءات، منها: أن «اثنتين وخمسين بالمئة من النساء اللاتي شملهن المسح تعرضن لنوع من الإكراه الجنسي، واعترف واحد من كل اثني عشر رجلاً أنه قام بما يطابق تعريف الاغتصاب أو الشروع في الاغتصاب، مع ذلك لم يصف أي من هؤلاء الرجال أنفسهم بأنهم مغتصبون»[61]. وتشير أبحاث في فروع أخرى من العلوم الاجتماعية

إلى أن الرجال كثيراً ما يسيئون تفسير المعاملة الودية من النساء ويعدونها إغوائية أو مشجعة جنسياً.(62)

وفي ضوء هذا أقول: إن ما يعرضه القرآن هو وصف لأخطار مستمرة تواجه المرأة في الفضاء العام. ويُطلب الحجاب للمرأة بوصفه إستراتيجية أكثر منه إقراراً بتمايز الجوهر بين الذكر والأنثى. فالقواعد من النساء يُسمح لهن بترك الحجاب: ﴿ وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾ ﴾ (النور: 60). وعلى خلاف الموقف الليبرالي أو ما بعد الحداثي، الذي يرجو أن تقضي عملية التطبيع الاجتماعي على تحرش الرجال بالنساء، يشير القرآن إلى أن هذه صفة دائمة في الوجود الإنساني. ولا يعني هذا وجود حتمية بيولوجية، كأن يقول: إن الموروثات «س» و«ص» تعني المتحرش بالنساء: فأغلب الرجال يعاملون النساء معاملة طيبة، بل الواقع أن التطبيع الاجتماعي يجعل هذا النمط من السلوك الذكوري متكرراً وقابلاً للتكرار. وكما تقول سوزان بوردو: «إنه نوع من العمى يخلقه قبول [الرجال] وتماهيهم مع موقع ومزايا [ومخاوف] الذكورة في ثقافة أبوية ذكورية»(63). ويشير الموقف القرآني ضمناً إلى أن عملية التطبيع الاجتماعي للذكور ستظل قوة أشد من أي قوة تواجهها. وإن قبول وجود صفة «للأنوثة» وللذكورة مستمرة في المجتمع لهو فهم مقْنِع ومشروع للعلاقة بين الجنسين، وليس بالنظرة المتخلفة أو القاهرة لوجود النساء في المجتمع. وما أدرك مغزى الحجاب من ينتقدونه لأنه يقر بجدوى فكرة نسبية السياق الذي يوجد به الجسم، ويعدون ذلك الإقرار دليلاً على قبول النساء أو تكيفهن، أو إذعانهن للخضوع للحكم الذكوري.

ستظل ثنائية الطبيعة أو التطبيع لغزاً لا يحل إلى الأبد، ولقد خضت فيه؛ لأن الافتراضات الليبرالية بتغليب جانب التطبيع في المواجهة الفكرية تفترض تلقائياً أن الحجاب رمز لتغليب جانب الطبيعة في هذه المناظرة. وأنا أَعُدُّ أن نسبة الأمر إلى الاختزال الجوهري هو أحد أكبر التأويلات النسوية المغلوطة للحجاب، والتي تؤدي إلى انتقادات سلبية لعملية التحجب. ولقد بينتُ لتوي لماذا وكيف ربطت بين مقولة

الاختزال الجوهري وبين الحجاب. وقلت: إن الأحكام النسوية على الحجاب ووصفه بالقهر كثيراً ما تستند إلى افتراض بأن الحجاب يعني اختزالية جوهرية خطيرة، ولذلك سأتوسع بعض الشيء في نقدي لهذا الموقف.

عندما نفترض أن تحرر النساء يعني استطاعتهن أن يفعلن ما يحلو لهن، وعلى الرجال أن يغيروا سلوكهم تجاه النساء. سيبدو الحجاب ممارسة تنكر هذه الدعوة صراحة، ويترتب على ذلك أن يعني الحجاب أن النساء دائماً مصدر غواية، وأن الرجال بفطرتهم دائماً عاجزون عن التحكم بأنفسهم، ومن ثم تسقط مسؤولياتهم نحو النساء، وتحمل النساء عبء هذا الإخفاق الفطري الذكوري، فيفرض الرجال الحجاب على النساء لصالح الرجال. وتمثل تعليقات هالة عفشر نموذجاً لهذا النوع من ردود الأفعال النسوية على الحجاب؛ تقول:

> **يكمن وراء الحديث عن الشرف ومحاربة الفتنة اقتناع راسخ، ليس بضعف النساء، كما يعلن، بل بهشاشة الرجال. إذ يعتقد أن الرجال شديدو الضعف، أمام «المفاتن الأنثوية»، مما دفع النظام [الإيراني] إلى الإصرار على إخفاء وجود النساء. ويفرض هذا الاقتناع بضعف الرجال ارتداء الحجاب على النساء من أجل القضاء على «الزنا» و«اللواط».**
>
> **أما الافتراض المعلن للنظام فهو أن الخطرين الأساسيين على سلامة الذكور العقلية وعلى العقلانية، هما الغضب والإثارة الجنسية، والنساء وحدهن سبب الخطر الثاني. فيقال: إن مجرد وجود النساء يقوّض السلامة العقلية للرجال، وليس جسد المرأة وحده هو ما يثير الرجال جنسياً، بل أيضاً وجهها وحركتها ونبرة صوتها، بل ولون ملابسها... ويلقى الحجاب كل الترحيب، بوصفه إجراءً جاء في وقته لضبط سلوك «النساء الخليعات»، و«ضبط وسائلهن المشينة» وحماية «شرفهن». ولكن الحقيقة أن «خندق العفة» هذا ليس مفروضاً لحماية النساء، بل لمنع الهلاك التام لجنس الذكور المعرّض للخطر بمجرد رؤية النساء**[64].

تضع إدانة هالة عفشر للحجاب أيدينا على بعض جوانب الواقع المعيش في بعض المجتمعات الإسلامية، حيث تعد النساء أحياناً كائنات يلهي وجودهن في حد ذاته

الرجال، برغم أن مقولتها هنا مجرد عرض ساخر لمقولات مؤيدة للحجاب، فهي تسخر من الطبيعة الجنسية الذكورية، وتنظر للحجاب من زاوية الرجال وحدها، غافلة عن مستويات النقاش التي عرضتها عن فائدة الحجاب للنساء. وأعتقد أن الخلاف هنا خلاف في الدرجة؛ لأنني على يقين من أن سخريتها من الرجال لا تعني أن النساء لا تثير الرجال، وأن الرجال لا ينجذبون إلى النساء. وإذا عددنا انجذاب الرجال للنساء أمراً طبيعياً، فإن كل ما يقوله الحجاب هو أن الرجال يسهل عليهم غض بصرهم عندما ترتدي المرأة الحجاب. وكما طرحتُ في الفصل الرابع، لا يُقْدِم الحجاب على افتراض كون كل النساء داعيات للغواية ولا بد من إدانتهن وخنقهن في «خندق العفة»، ولكن ما يجرى بين الاثنين، الرجل والمرأة، من الانجذاب الجنسي، يمكن أن يكون خطيراً ويسبب المشكلات (وإن كان ممتعاً) للطرفين، ويعدّ الحجاب حاجزاً أمام هذه التفاعلات الجنسية. وهو كذلك يحمي النساء من أسوأ جوانب النظرة الذكورية ـ احتقار الذات والتَّشْيِيء والسلعنة ـ التي حللناها سابقاً، كذلك يعين الحجاب المرأة على غض البصر. كما أن الإحساس بغطاء الرأس على الشعر وحول الذقن قد يمثل تذكرة للنساء للتصرف باحتشام، ويمكن للسلوك الذكوري المتحفظ أن يستتبع تحفظاً مماثلاً لدى النساء. كذلك فإن هذا السلوك الذكوري المتحفظ قد يخلق إحساساً بالأمان، إذ إن فضاء المرء الشخصي آمن من الاقتحام، وكذلك التجول في مدينة ليس بها صيحات المعاكسة والصفير والحملقة وغيرها من أنواع التحرش الذكوري.

(وحتى إن جذب الحجاب الانتباه للمرأة في بيئة غربية حيث يحملق الناس كأنهم يرون إحدى العجائب، فإن غياب الحملقة المشتهية يمكن أن يعد راحة تعزز الذات لدى المرأة. أما الألم فيأتي من التحرش المعادي للإسلام الذي تتعرض له المحجبة حالياً). وأرى أن الرضا النفسي الذي توفره هذه الجوانب في الحجاب بالغ الأهمية، ولكنه يغيب عن خطاب الإدانة النسوية للحجاب. قد يعني الحجاب، عند مستوى معين، أن «المرأة كائن جنسي»، أي شيء جاذب جنسياً للرجال، ولكن ليس هذا هو المدلول نفسه لتعبير «كائن جنسي» الذي يعني أن تكون المرأة هدفاً دائماً للنظرة الذكورية المتفحصة دائماً. ولا ينكر الحجاب أن يكون الرجال «كائنات جنسية» بالنسبة للنساء، بمعنى شيء جاذب جنسياً للنساء؛ فالمسلمات أيضاً مأمورات بغض البصر.

إذا كان النظر للحجاب من زاوية الإدانة النسوية، فسيرتّب على مناقشتنا السابقة استنتاجاً بأن الشهوة الجنسية الأنثوية يتم تجاهلها في هذا الاتفاق على نحو ما (فالنساء تتحجب ثم لا يغطي الرجال أجسامهم بقدر ما تفعل النساء). وتحرص نسويات ليبراليات مثل نعومي وولف على ذكر أن النساء تنظر للرجال أيضاً، وأنهن يشتهين الرجال ويستخدمنهم كأشياء أو كائنات جنسية عندما يدخلن إلى مغامرة جنسية أو يقرأن كتابات جنسية، ويستمتعن بمشاهدة عروض تعرّي الرجال. ومن اللافت للنظر أن وولف تؤكد مساواة النساء عن طريق الاحتفاء بِتَشْيِيء وسلعنة النساء للرجال. وفكرتها أن الشهوة الجنسية للنساء غالباً ما تُصَادر أو تكبت أو يساء تمثيلها في الثقافة الذكورية. ومن أوجه النقد النسوي، التي توجه كثيراً إلى الثقافة الغربية، الاعتقاد بأن المجتمع الغربي يكبت الرغبة الجنسية لدى النساء، ويجعلهن يشعرن بتجاوز حدود الأنوثة المحترمة عندما يتصرفن بوصفهن كائنات راغبة في الجنس. تناقش جانيت هولاند «الرؤية الغربية السائدة للشهوة الجنسية الأنثوية» فتصفها «بالسلبية». وتقول: «إن أي خطاب يرى مشروعية في استمتاعها أو يقر معرفتها الجنسية أو يقدر أداءها ويعده تحت سيطرتها؛ فهو خطاب يمثل خطراً على الذكورة»[65].

وتقول سوزان بوردو: «ومن ثم فإن إدارة الرغبة الأنثوية تحديداً في الثقافات المتمحورة حول الذكر تعد مشكلة مزدوجة العبء. فشهوات النساء [تعد] بطبيعتها زائدة وغير عقلانية، وتنذر بالانفجار وتحدي النظام الذكوري»[66]. وهذه هي النظرة نفسها التي تنسبها المرنيسي وغيرها من النسويات للإسلام. ويبدو الحجاب من هذا المنظور، كما في مقتطف عفشر السابق، كأنه بدعة ذكورية أخرى للسيطرة على النساء؛ حتى لا يعبرن عن شهوتهن الجنسية. مع ذلك، وكما فصلت في الفصل السابق، وفي القسم (ج) من الفصل الحالي، لا ينظر للطبيعة الجنسية الأنثوية على هذا النحو؛ إذ يعزى كبت الشهوة الأنثوية في السياق الغربي إلى التراث المسيحي، قدسية العذرية، وكبت الشهوة سبيلاً للتقرب إلى الله. أما في الثقافات الإسلامية، فيعد إنكار شهوة المرأة جانباً ثقافياً شعبياً فظاً وجاهلاً ينتمي إلى تراث غير محدد، وهو مزيج من المؤثرات الثقافية. ولكن الثقافة الإسلامية القائمة بحق على مثال قرآني قياسي كالذي أدعوله، لن يكون هذا اتجاهها نحو الشهوة الأنثوية. فالشهوة الأنثوية

تظل محل ترحيب ما دامت في إطار الزواج (أما النسويات اللاتي يعتقدن أن قصر الجنس على الزواج فيه قهر، فلا يشك هنا في أن الإسلام يضبط الشهوة الأنثوية). ويروي الغزالي قصة عن الأصمعي: «رأيت في البادية امرأة عليها قميص أحمر وهي مختضبة وبيدها سبحة فقلت: ما أبعد هذا من هذا! فقالت:

ولله مني جانب لا أضيعه وللهو مني والبطالة جانب

فعلمت أنها امرأة صالحة لها زوج تتزين له»[67]. ويستمر الغزالي في تعليم المرأة أن عليها في غياب زوجها أن تحفظ عفتها (كما يجب عليه ذلك)، «ومن آداب المرأة ملازمة الصلاح والانقباض في غيبة زوجها، والرجوع إلى اللعب والانبساط وأسباب اللذة في حضور زوجها، ولا ينبغي أن تؤذي زوجها بحال»[68]. وربما يساور القلق بعض النسويات من أن هذا التوجيه يجعل شهوة المرأة تابعة لشهوة زوجها. لهذا يجب التذكير بأن الرجال أيضاً مأمورون بأن يشبعوا شهوة زوجاتهم. ومن ثم أقول: إن الحجاب لا ينكر شهوة النساء، ولكن صالح المجتمع يقتضي ضبط شهوة الرجال والنساء، داخل البيت وخارجه، لا سيما في الفضاء العام.

لدى النسويات اعتقاد راسخ بأن الذكورية تعيق الشهوة الأنثوية، بينما تطلق العنان للشهوة الذكورية، وشك عميق أيضاً بأن الحجاب علامة على تحرر الرجال من عبء التحكم في أنفسهم، ووضع الثقل الأعظم فيما يخص «ضبط الشهوة»، على النساء. هل نذكر تأكيد المرنيسي أن فرض النبي الحجاب على النساء كان إشارة بأن الشارع مكان يسمح فيه للرجال بالتحرش بالنساء وإشارة بأن ضبط النفس داخلياً ليس مطلوباً منهم؟[69] كثيراً ما تسألني غير المسلمات إذا كان الحجاب يعني تحرر الرجال من كل مسؤولية. هل الحجاب رسالة بإباحة التحرش بغير المحجبات وبأن «الذكور سيظلون دائماً ذكوراً [لن يتغيَّروا أبداً]؟» إن تقديم رؤية مفادها أن الحجاب يحرر النساء من الآثار السلبية للنظرة الذكورية، لا يعني القول: إن الحجاب أداة سحرية توقف كل اعتداء ذكوري ضد النساء. ففي هذا إنكار للرؤية النسوية الصحيحة بأن اعتداء الذكور على الإناث غالباً ما يكون تعبيراً عن السلطة (وليس الجنس). وللأسف فإن تحرش الذكور بالإناث ظاهرة عالمية، (وللأسف أيضاً)

فالرجال المسلمون ليسوا استثناءً من ذلك. مع هذا، يفتقر هؤلاء الرجال إلى الآداب الإسلامية القويمة المرتبطة بعلاقات الذكور بالإناث، ولا يجسدون المثال الإسلامي، كما أن الرجال الغربيين الذين يتحرشون بالنساء لا يجسدون المثال اليهودي المسيحي الغربي أو المثال الليبرالي العلماني. ولسبب أو لآخر، غالباً ما يسيء نقاد الحجاب فهم هذه النقطة. ففي دراستها لحركة العودة المعاصرة للحجاب، تخلص أرلين ماكلويد في حكمها على الحجاب إلى القول: «وبدلاً من الإلقاء باللائمة على الرجال وضرورة تغيير سلوكهم، تكيفت النساء بتغيير أزيائهن حتى تتوافق مع المعيار السائد وهو وجوب عدم إغواء النساء الرجال»[70]. أي أن نقد أرلين ماكلويد للحجاب مرده افتراض خاطئ بأن الرجال متحررون من المسؤولية فيما يخص سلوكهم تجاه النساء. وفكرتي هي أن القرآن يضع على النساء، بمعيار واحد، القدر نفسه من المسؤولية التي يضعها على الرجال (وربما أكثر). وسأتوسع هنا استناداً إلى القرآن والسنة.

أولاً، كما سبق، يأمر القرآن الرجال بأن ﴿يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ﴾ (النور: 30). وغض البصر يعني أن الرجل إذا رأى امرأة (مهما كان ملبسها، متسربلة بالملابس أو عارية) فعليه أن يغض بصره. أي: إن عليه ألا ينظر إليها، وألا يصفّر لها أو يلمسها أو يتحرش بها أو يهاجمها. ويؤدي غض البصر إلى «تزكية أكبر» للرجال. ثانياً، تؤكد أحاديث عدة على أهمية غض البصر للرجال. يورد البخاري حديثاً يرويه أبو سعيد الخدري، رضي الله عنه: عن النبيﷺ قال: «إياكم والجلوس على الطرقات». فقالوا ما لنا بد، إنما هي مجالسنا نتحدث فيها. قال «فإذا أبيتم إلا المجالس فأعطوا الطريق حقها» قالوا وما حق الطريق؟ قال «غض البصر، وكف الأذى، ورد السلام، وأمر بالمعروف، ونهي عن المنكر»[71].

ويورد الترمذي وأحمد وأبو داود الحديث الآتي: «يا علي، لا تتبع النظرة النظرة فإن لك الأولى وليست لك الآخرة». ويورد عبد الرحمن دوي رواية: «عن جرير بن عبد الله، قال: سألت رسول اللهﷺ عن نظرة الفجأة فأمرني أن أصرف بصري»[72].

ثالثاً، الرجال المثاليون هم من يقاومون شهواتهم. ويروي الغزالي قصصاً عديدة بقصد وعظ قرائه. فيورد قصة رواها البخاري عن ثلاثة رجال حبسوا في مغارة

سـدت صـخرة بابها، وكانوا كلما ذكر رجل منهم عملاً صـالحاً خالصـاً انفرجت الصـخرة قليلاً، وكان العمل الصـالح لأحدهم أنه كانت له ابنة عم، حاول مرة أن يغويها لكنها صـدته، فجاءته بعد عام من الفاقة تطلب المسـاعدة، فوافق بشرط أن تسلمه نفسها، إلا أنها لما قعد بين رجليها قالت: «اتقِ الله ولا تفض الخاتم إلا بحقّه، قـال: «فقمت وتركتها، فإن كنت تعلم [يارب] أني فعلـت ذلك ابتغاء وجهك، فافرج عنا فرجة، قال: ففرج عنهم الثلثين»[73].

ويروي البخاري حديثاً آخر رواه أبو هريرة عن سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، ومنهم «رجل دعته امرأة ذات منصـب وجمال إلى نفسـها، فقال: إني أخاف الله»[74]. ومن ثم فقد أخطأت ليلى حسـيني فيما خلصـت إليه بشأن الحجاب: فهي «تعزو فكرة وجوب تغطية النسـاء أجسـادهن حتى ينلن الاحترام، إلى تقسيم المجال المتاح وإلى افتراضات حول الاختلافات الجوهرية بين الرجال والنساء»[75]. فالنساء المسـلمات لا يتحججن لينلن الاحترام؛ فهن مسـتحقات للاحترام في كل حال. فإذا لم تُعامل المرأة (مسـلمة كانت أو غير مسـلمة) باحترام بسـبب أنهـا لا ترتدي حجاباً، فالخطأ يقع على الرجال، وليس على غياب الحجاب.

وينظم الحجاب التعبير عن الشهوة الذكورية والأنثوية، وهو جزء من نظام اجتماعي يحرم على الرجال والنساء الأجانب والأجنبيات أن يمسَّ بعضهم بعضاً، وينهاهم عن الدخول معاً في أحاديث اجتماعية غير ضرورية. وعلى عكس الثقافة الغربية التي تعلم الرجال والنسـاء أن من المقبول من الرجال والنسـاء النظر بعضـهم إلى بعض، وأن تستثار شهوات النساء بالرجال، والرجال بالنساء (فالمطبوعات الجنسية والإعلانات والأفـلام والتلفاز وغيرها من وسـائل الإعلام المرئية، تعج بصـور لرجال يتصـفون بالوسـامة ونساء جميلات شبه عرايا)، فإن القرآن يعلّم الرجال والنساء أنه من غير المقبول أن ينظر الرجال والنسـاء بعضـهم إلى بعض. وهذا مثال يسعى إليه كثير من المسـلمين العاملين؛ فكثير ممن قابلت من المسـلمين العاملين ينظـرون إلى الأرض أو فـوق كتفي عندما يتحدثون إليّ (وهذا الأمر يبدو مسـتفزاً في البداية لمن تعوّد النظر المباشـر). وهم لا يصافحونني ولا يلمسـون ذراعي أو كتفي في أثناء الحديث كما هو

شائع في الثقافة الغربية، ففضائي البدني آمن من اقتحاماتهم، ويصدر هذا السلوك منهم بصورة طبيعية سواء كنت محجبة أم لا، أو كنت مسلمة أم لا.

تنزعج النسويات الليبراليات الغربيات كثيراً من هذه الفواصل القاطعة بين الرجال والنساء، وبسبب خوفهن من ضرر الاختزال الجوهري، يخشين أن يختزل هذا الفصل السلوك الذكوري اختزالاً سلبياً فيقول ضمناً: إن الرجال «لا يشغل عقولهم سوى شيء واحد». ولا تصدق النسويات الليبراليات الغربيات أن الشهوة الجنسية قوة عاتية قاهرة تجذب الرجال والنساء بعضهم إلى بعض. وليس المقصود هنا أن كل لمس أو نظر بين الرجال والنساء له قصد جنسي، فهناك نظرات ولمسات غير جنسية، ولكن المقصود أن ثمة حالات يكون القصد فيها غير واضح، وبدلاً من ترك الموقف على غموضه (هل قصد (ت) أن يبتسم لي أو يلمسني/ تبتسم لي أو تلمسني بتلك النية، أو إنه/ إنها يعبر/ تعبر عن الود فحسب؟) فقطع الأدب الإسلامي هذه الحيرة من جذورها. فما من داعٍ إلى قضاء ساعات في التفكير: هل كان قصده أو قصدها جنسياً من هذه اللمسة، أو في معالجة الآثار السلبية الناتجة عن سوء تأويل لمسة غير جنسية، فلا داعي للمس من الأصل، هكذا بكل بساطة وصراحة. فالفكرة وراء هذا الفصل الصريح بين الرجال والنساء هي أن ما «قد» يؤدي إلى كبيرة [الزنا] ينبغي تجنبه كالكبيرة نفسها[76]. فهل يؤدي هذا الفصل بين الذكور والإناث إلى خسارة للجنسين، خسارة هي في نهاية الأمر مؤذية لحق المرأة في المساواة؟ أعتقد أن المغالاة في الفصل بين الذكور والإناث، تسبب خسارة تكبل النساء، وتمنع قيام علاقات صحيحة بين الذكور والإناث، وذلك باستبعاد أي فرص لتبادل الرؤى والأفكار بينهما. ولكن المغالاة في الاختلاط يمكن أيضاً أن تؤدي إلى خسارة، تتمثل في أخطار كثيرة جداً تتعلق بأمن النساء. والتحدي هو إيجاد أرض مشتركة بين هذين الدربين[77].

وتبقى الآن نقطة أخيرة ينبغي تفنيدها. وهي فكرة جيرالدين بروكس التي تشيع بين نسويات كثيرات: «وراء كل ما يقال عن كون الحجاب أداة تحرير للمرأة ووراء كل نقاش لقوة الحجاب، كرمز سياسي وثوري لإنسانية [المرأة]. هناك الجسد: الجسد الأنثوي الخطير الذي حمّله المجتمع المسلم عبء الشرف الذكوري الثقيل»[78]. ترى

جيرالدين بروكس، مثل نسويات كثيرات، أن الحجاب، بكل ما يقال عن إيجابياته، هو بالفعل رمز لثقافة تضحي بحرية المرأة وشهوتها الجنسية على مذبح الشهوة الجنسية الذكورية والشرف الذكوري. كان الحجاب بوصفه رمزاً للشرف الذكوري موضوعاً سائداً في الأدبيات النسوية المتعلقة بالمسلمات في الستينيات والسبعينيات من القرن العشرين، (ولا يزال موجوداً الآن في المواد الإعلامية الشعبية). ولكن هذه النظرة إلى الحجاب ترصد رؤية ثقافية عربية (تختلف عن الرؤية القرآنية) للنساء والرجال؛ أي أن شرف الرجل مرهون بسلوك نسائه.

ليلى أبو لغد وأوني ويكان عالمتا الأنثروبولوجيا درستا مفهوم الشرف وأدوار النساء، وتنقض تحليلاتهما النماذج المعرفية القديمة التي سادت عقدي الستينيات والسبعينيات. وتشير كلتاهما إلى أن شرف الرجل، في بعض الثقافات، يتأثر بسلوك «ذويه» من النساء، ولكنه يتأثر أيضاً بسلوكه وسلوك غيره من رجال قبيلته. ففي صحار، في عُمان، يمهَل الرجل خمسة أيام إذا لم يكن أداؤه جيداً في ليلة عرسه، فإن لم ينصلح حاله يُطلَّق ويلحقه العار. وتؤكد أوني ويكان على خطأ الأدبيات الأنثروبولوجية التي تفترض أن النساء أنفسهن ليس لديهن شرف كما للرجال، «ففي داخل نطاقها في عالم البيت والحي الصغير، لا يكون شرف المرأة مجرد انعكاس لشرف عائلها، وإن ظن هو كذلك؛ بل يعتمد على قدرتها على التفوق في الجوانب السلوكية ذات القيمة التي يقدرها صديقاتها وجاراتها»[79]. فالشرف في قبائل أولاد علي يتعلق أيضاً بالدم (أي الأصل)، وينطبق هذا على الرجال والنساء[80].

أما مسألة المراقبة شبه الشرطية لسلوك النساء لحماية شرف الذكور، فهي ظاهرة ثقافية ليس لها ارتباط حقيقي بالحجاب، برغم افتراضات جيرالدين بروكس وغيرها من النسويات بوجود هذا الارتباط. كما أن فكرة ارتباط شرف الأسرة بسلوك نسائها ليست مقصورة على الثقافة العربية، بل هي في العموم ظاهرة شائعة في حوض البحر المتوسط[81]. وبرغم أن الحجاب قد يكون جزءاً من سيطرة المجتمع على النساء، فهو مجرد أداة مساعدة؛ لأن سلوك النساء في هذه السياقات الثقافية يكون منضبطاً بقواعد سواء ارتدت الحجاب أم لم ترتده. أما كون الحجاب إشارة إلى شرف الرجل فهو فكرة لا أساس لها في القرآن.

5 ـ الحجاب والاختيار

يرتاب باحثو وباحثات حركة العودة إلى الحجاب في مصداقية «اختيار» النساء للحجاب، كما يفعل الغربيون عامة. فثمة اقتناع راسخ بأن النساء يتعرضن للقهر أو غسيل المخ غير المباشر حتى «يخترن» التحجب. وكأنهم يقولون: «إذا كنت اخترتِ الحجاب فالواقع أنك تعرضت لعملية تطبيع اجتماعي، جعلتك تعتقدين أن الحجاب أمر طيب، ولكن لو كنتِ تعرفين مصلحتك كامرأة بحق لأدركت أن التحجب ليس بالأمر الطيب، ومن ثم فقرار حجابك مؤشر بائس على تعرضك لغسيل مخ». وبكل تأكيد كان هذا ظني قبل أن أسلم.

تفسر إيلي لوكا تمسك المسلمات بالحجاب بقولها: إنهن لم يملكن خياراً على مستوى الهوية (بمعنى أن قبول المرأة كمسلمة يقتضي الالتزام بالتعريف «الأصولي» «للمرأة»، وهو تعريف «يسجن النساء في نموذج مجتمعي، وأسلوب حياة، وزي، وسلوك أقرب ما يكون إلى النموذج التاريخي الذي ولد في الشرق الأوسط منذ أربعة عشر قرناً)[82]. وتفسر أرلين ماكلويد كيف «اختار» نساء دراستها الحجاب بقولها: إنهن «يخترن» من بين مدى ضيق من الأدوار المجازة ثقافياً، ويتجنبن اختيارات ممكنة أخرى، لكنها ليست مجازة ثقافياً»[83]. وتقترح عفشر تفسيراً للعودة إلى الحجاب يلقى قبولاً [نسوياً غربياً] تقول: «تبين لنا الأبحاث التي تتناول نفسية الأشخاص المقهورين أن إحدى إستراتيجيات التعامل مع موقفهم، هي تبني قواعد قاهرهم والالتزام بها دون تفكير[84]. وبهذا ترفض أرلين ماكلويد وإيلي لوكا وهالة عفشر فكرة «اختيار» الحجاب (من قبل النساء اللاتي يعشن في الشرق الأوسط).

إن العلاقة بين ثقافة الفرد وقدرته على الاختيار علاقة معقدة؛ لأن الاختيار أبداً يكون محصوراً في المسافة بين ما تعده الثقافة مقبولاً وما تعده غير مقبول. وحتى في الغرب، كما بيّنتُ في الفصل الثالث، حيث يتوافر قدر أكبر من الحرية، فثمة حدود لاختيارات الناس. فأغلب المجتمعات الغربية تتوقع أن تغطي النساء نهودهن أمام الناس، (إلا أن يكن في أماكن محددة مثل شواطئ العراة أو معسكراتهم). ولا نجد من يقول: «إن الثقافة تجبر النساء على تغطية نهودهن، لمجرد عدم تقبل الثقافة

لفكرة كشف المرأة نهديها في العلن». تقبل أغلب النساء هذا القيد، ويشعرن أنهن «اخترن» تغطية نهودهن عندما يرتدين ملابسهن، وهذه نفسها هي حال الحجاب؛ فهو زي مجاز ثقافياً في مجتمعات إسلامية كثيرة تستطيع النساء اتخاذه (ولكن هناك مجتمعات أخرى لا تقبل الحجاب، وتركيا هي أشهر مثال [سلبي] على هذا، في الوقت الحالي). وبالطبع لا ينطبق كلامي هذا إلا على المجتمعات التي تتيح للنساء اختياراً حقيقياً، ولا تنطبق على أماكن مثل إيران أو أفغانستان طالبان، حيث يكون نزع الحجاب محظوراً على النساء بحكم القانون، ولا ينطبق على مراحل الاضطراب الاجتماعي في العالم الإسلامي، حيث يعدّ الحجاب علامة ولاء، وحيث يمارس العنف ضد النساء لإجبارهن على التحجب. وهذا النوع من العنف ضد النساء غير مقبول، ما أقصده هنا هو العلاقة بين الحجاب والاختيار، في المجتمعات التي تتوافر فيها حرية حقيقية لاتخاذ الحجاب أو تركه.

إن الاهتمام الليبرالي أو الغربي بالضغط الممارس لفرض الحجاب يستمد جدواه من اعتبار الحجاب أمراً غير حسن. وليس ذلك لأن الغربيين لا يقبلون الضغط الاجتماعي في سياقات أخرى، ولا لأنهم لا يقبلون بتشريع قوانين لإقناع الأفراد (أو إجبارهم) مثل حملة: «لا تشرب (الخمر) وتقود سيارتك» أو حملة: «التدخين ضار بصحتك» (والذي يشمل قانوناً لحظر التدخين في الأماكن العامة والطائرات ونحوها) والقوانين التي تمنع الكتابات المحرضة على الكراهية، وما إلى ذلك. هذه حملات للضغط الاجتماعي هدفها تغيير ما يراه أغلب الناس مؤذياً وتشجيع السلوك الحسن. ولا تختلف حملات الدعوة للحجاب عن ذلك؛ فمجرد وجود ضغط اجتماعي لا يستخدم العنف للتحجب، لا ينبغي أن يعد «شراً».

من جوانب اهتمام س. برينر بشأن اتخاذ نساء دراستها الجاويات الحجاب، ما يبرز هذا التركيز على مسألة الإكراه. تدرك برينر في تحليلها أن النساء اللاتي اخترن الحجاب قد اخترنه بالفعل، ولم يتعرضن لعملية غسيل مخ. ولكنها تذكر أنها لاحظت «رقابة» كأنها «رقابة شرطية» من النساء بعضهن على بعض لفرض الحجاب، وذلك أنها رأت النساء تنبه الواحدة الأخرى حين ينكشف عنقها أو شعرها من تحت

الحجاب. من السهل هنا أن نرصد كيف يرى الغريب هذا الأمر كأنه «فرض» سياسة حازمة للتحجب، لأن هذا الغريب غير مقتنع بفكرة التحجب. وسأبيّن أن هذا السلوك ليس من الإكراه في شيء، وذلك عن طريق إعادة صياغته داخل سياق غربي: ينفتح زر «البلوزة» الأوسط لإحدى النساء فجأة، فتميلين عليها وتخبرينها بذلك فتسرع بربطه في حرج. فهل وَقَعْت تحت طائلة الإكراه على سياسة تقول: «غطي نهديك» أم أنها تكون شاكرة؛ لأن إحداهن نبهتها إلى «بلوزتها» المفتوحة، لأنها لا تريد أن يرى الناس مشد صدرها؟

6ـ الحجاب والتدين

تقول نظريتي الإيجابية عن الحجاب: إن الحجاب أداةٌ تُقوّي المرأة على المقاومة في الثقافة الرأسمالية الاستهلاكية للقرن الواحد والعشرين، بما فيها من تَشْيِيْء وسلعنة للجسد الأنثوي. وأقول: إن الحجاب لا يخنق الأنوثة، ولا يدل على غياب الاختيار. أما الجزء الأخير من النظرية فهو إبراز دور الحجاب في رفض مادية الثقافات الرأسمالية المعاصرة.

والحجاب أمر ديني، وإذا ارتدته المرأة احتراماً للدين، كما قال كثير من اللاتي أجريت معهن مقابلات شخصية، فإنه يمثل لهن بوابة دخول إلى الدين الإسلامي. وشأنه شأن غيره من الديانات العالمية الكبرى، تضع تعاليم الإسلام الأولوية للحياة الآخرة وتحذر المؤمنين من الوقوع في حبائل متاع هذه الحياة الدنيا. ومن ثم فالإسلام يقف حاجزاً أمام مادية الرأسمالية. وإن المسلمة باتخاذ الحجاب تطرق باب تراث ديني عميق الجذور، يقدم حلولاً ملموسة لمواجهة الآثار الضارة للمادية.

ولقد ناقشت قبل ذلك بالتفصيل الفوائد النفسية للحجاب بوصفه رفضاً لصناعة الجمال الرأسمالية. وللحجاب نفسه «موضاته» وأشكاله ذات الماركات الراقية التي ترتبط بالطبقات العليا، ونحو ذلك، والمسلمات يتنافسن في الجمال ويحكم بعضهن على بعض. ولكن ذلك من آثار تسرب عناصر من العالم المادي إلى الفضاء الديني. وهناك مقاومة داخلية قوية لهذه الأشكال من الاقتحامات الخارجية، كما يظهر في

الخطاب العام المتعلق بالحجاب: أي أنه يشترط أن يكون فضفاضاً ولا يكون من مادة لافتة للنظر، ولا يقصد به «الشهرة والكبر والتعالي»[85] وغير ذلك.

بالإضافة إلى ذلك يذكّر القرآن الناس بيوم الحساب، حين يوزن لكل نفس ما عملت من خير وما عملت من سوء، ويذكرنا دائماً بأن التقوى أهم من كل متاع الحياة الدنيا، والملبس من المتاع. وبرغم أن ارتداء الحجاب ـ كفعل من أفعال التقوى ـ يجعله أداة قوة، فهذا مجرد خطوة أولى. يقول الله في القرآن:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣ ﴾.

(الحجرات: 13)

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ٢٦ ﴾.

(الأعراف: 26)

وهناك حديث في صحيح مسلم يقول: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم». (الحديث رقم 2564).

تضع هذه الآيات قضية الملبس في منظور مختلف تماماً: منظور يذكّر المؤمنين ألا يفوتهم أن الله لا ينظر إلا إلى التقوى. وهذه الرسالة عقار قوي مضاد لمادية الثقافة الرأسمالية، التي تولي النجاح في العالم المادي الأهمية الكبرى، وتعلم الناس أن يكونوا عبيد شهواتهم وأن تكون المتعة هدفهم، يقول أحد إعلانات المياه الغازية: «أطع عطشك»*. ووصل الأمر إلى حد أن يتعرض بعض المراهقين للقتل لسلب أحذيتهم الرياضية من نوع «نايكي»، وهذه إشارة إلى المدى الذي بلغته الرأسمالية في إفساد الروح الإنسانية.

وهناك طريق آخر يمكن أن يجعل الحجاب يقاوم ثقافة الرأسمالية المادية، إذا اتخذته المرأة من باب التدين، وهو رسالة القرآن عن كمال الجسم البشري.

* ترجمت العبارة في الإعلانات العربية على نحو مخفف: «ارضِ عطشك»، ولكنه لا يغير من الفكرة الأساسية (المترجم).

فاضطرابات عادات الأكل، وعدم الرضا عن الجسم، تصل إلى نسب وبائية في الغرب، ولا يحدث هذا إلا في ثقافة توقفت عن الإيمان بأن الله مسبب الأشياء، ومنها شكل الجسم. وربما كان الجسم موضعاً وهدفاً للتشكيل الثقافي، والممارسة الثقافية حتى وصلنا إلى نفي الوجود الحقيقي «للجسم الطبيعي»[87]. ومن الثابت أيضاً أن تغيير بنية الجسم تغييراً مؤثراً لا يتم بغير اللجوء إلى الجراحة. وبرغم أن الإنسان يستطيع أن يمارس الحمية والرياضة، فإن مجرد الالتزام بالحدود الصحية (أي عدم الوصول لدرجتي المخمصة أو التخمة) يجعل الأمر غير محتاج إلا لتعديل بسيط. أما الرسالة القرآنية فتوصية بأن نسعد بأجسامنا ونرضى بها؛ لأنها من خلق الله ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (آل عمران: 6)، وهو الذي خلقنا ﴿فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ (التين: 4) وكان النبيﷺ يوصي الناس أن يكونوا أصحاء، ويعتدلوا في الاستهلاك وفي الجهد.

وأخيراً، فإن المحاذير الإسلامية حول التمثيل التصويري للبشر، قد منع الانتشار الواسع لاستخدام الجسد الأنثوي لأغراض تجارية؛ فالإعلانات لا تقدم جسداً أنثوياً فاتناً لتغري المشترين المستهدفين، وفي إعلانات ملابس النساء، توضع الملابس على تماثيل مخصصة لهذا الغرض، لها وجوه بلا معالم ورأس مغطاة، أو تخفى ملامح الوجه إذا كان في الإعلان صور فوتوغرافية. ولا يظهر من وجه المرأة أو شعرها شيء، وبذلك لا تكون صورتها مستخدمة كمثال، على النساء جميعاً التطلع إليه؛ وهكذا لا تستخدم صور النساء (ولا الرجال) للترويج لظاهرة تصويب الذات ومراقبة الذات*، كما هي حال استخدام الصور في التوجه العام في الثقافة الغربية، وإن التحرك في هذه البيئة الثقافية الإسلامية، يزيح عن كاهل المرأة كثيراً من آلام مقارنة أنفسهن، بصور (مزينة ومعدّلة) لحسناوات يُتْقن لأن يشبهنهن[88]. ويمكن أن تعد النساء هذه الأشياء أسباب راحة وتحرر، كما تدلل مقالتا ناهد مصطفى وسلطانة يوسفالي. تخلص المرأتان إلى أنهما يعاملان حسب شخصيتيهما وأفعالهما، وليس حسب ملامحهما. تقول ناهد مصطفى: إن الحجاب «ببساطة تأكيد من المرأة بأن الحكم عليها من خلال مظهرها الخارجي ليس له أثر يذكر في التفاعل الاجتماعي». وتقول سلطانة يوسفالي:

* وفق نموذج ثقافي شائع (المترجم).

«جسـدي شـأني الخاص، ولا يمكن لأحد أن يملي عليّ كيف ينبغي أن أبدو، أو يقرر ما إذا كنت جميلة أو لا. فأنا أعرف أن عندي أشياء أهم من ذلك بكثير».

الخاتمة

الفكرة الرئيسة في هذا الفصل، هي أن الحجاب أداة دعم لمقاومة لعبة الجمال في الثقافة الرأسمالية الاستهلاكية للقرن الواحد والعشرين، التي لها أثر ضار في تقدير الذات لدى النسـاء وفي صـحتهن البدنية. كما أن الحجاب زي يفرضـه الدين، وهذا الارتباط بين الحجاب والدين، يعطي الملتزمات به سبيلاً نحو تراث ديني يرفع تقدير الذات؛ إذ يُذكّر الناس بأن أقدارهم ليسـت مرتبطة بالمظاهر، بل بصـالح الأعمال. ومن هذا المنظور يكون الحجاب رمزاً لدين يعامل النسـاء بوصـفهن بشراً، لا كائنات جنسـية. ويناقض هذا القول فهماً نسـوياً شـائعاً للحجاب بأنه رمز لرؤية الإسـلام للمرأة بوصـفها كائناً جنسـياً، وأنها ينبغي أن تتحجب؛ لأنهـا لا تعدو أن تكون «أنثى» صفتها الأهم هي شهوتها الجنسية التي تهدد النظام الاجتماعي.

obeikandl.com

obeikandl.com

هوامش الفصل الخامس وتعليقاته

(1) N. Mustapha, <My Body is my Own Business>, Globe and Mail (Tuesday, June 29, 1993), Facts and Arguments.

(2) S. Yusufali: «My Body is my Own Business», Toronto Star (Tuesday, February 17, 1998), p.C:1.

(3) See Berger et al., Ways of seeing.

(4) A. Dworkin, «Pornography is a Civil Rights Issue», in Debating Sexual Correctness: Pornography, Sexual Harassment, Date Rape, and the Politics of Sexual Equality, (ed.), Adele M. Stan (New York: Delta, 1995), p.27.

(5) Catherine A. MacKinnon, «Sexuality. Pornography, and Method: «Pleasure under Patriarchy», in Feminism and Philosophy: Essential Readings in Theory, Reinterpretation, and Application, (eds.), Nancy Tuana and Rosemarie Tong (Boulder, Co.: Westview Press, 1995), p.142.

(6) Michael F. Jacobson and Laurie Ann Mazur, Marketing Madness: A Survival Guide for a Consumer Society (Boulder, Co.: Westview Press, 1995), pp.8485-.

(7) Berger et al., Ways of seeing, p.47.

(8) Amy B. Rossiter, «Chips, Coke and Rock-»N «-Roll: Children«s Mediation of an Invitation to a First Dance Party», Feminist Review, 46 (Spring 1994), p.5.

(9) See also, Jane M. Ussher, Fantasies of Feminity: Reframing the Boundaries of Sex (London: Penguin, 1997).

(10) Elle Macpherson: الحق أنني لا أحب مظهري...فعندما تحاولين أن تسوِّقي جمالك، وأنت تدركين أنك لست على قد كبير من الجمال، يكون الأمر مفزعاً, Quoted in Ussher, Fantasies of Feminity, p.62.

(11)Ibid., p.9.

(12) Naomi Wolf, Fire With Fire: The New Female Power and How it Will Change the Twenty-first Century (New York: Random House, 1993), p.105; Marcia Ann Gillespie, «Where do We Stand on Pornography? A Ms Roundtable» in Debating

Sexual Correctness: Pornography, Sexual Harassment, Date Rape, and the Politics of Sexual Equality, (ed.), Adele M. Stan (New York: Delta, 1995), p.59.

(13) Bordo, Unbearable Weight, pp.2425-.

(14) Susie Orbach, Fat is a Feminist Issue: A Self-Help Guide for Compulsive Eaters (New York: Berkeley Books, 1979), p.8.

(15) Bordo, Unbearable Weight, p.188.

(16) Jacobson and Mazur, Marketing Madness, p.75.

(17) Bordo, Unbearable Weight, pp.18,211.

(18) «Out of Control: Weight-Obsessed, Stressed-out Coeds Are Increasingly Falling Prey to Eating Disorders», People, April 12 (1999), pp. 5272-.

(19) Bordo, Unbearable Weight, p.57. See also, Steven C. Abell and Maryse H. Richards, «The Relationship Between Body Shape Satisfaction and Self-Esteem: An Investigation of Gender and Class Differences», Journal of Youth and Adolescence, 25, 5 (1996), pp. 691703-.Orbach, Fat is a Feminist Issue, p.52.

(20) كانت الاضطرابات في عادات الأكل تكاد تقتصر على الغربيات البيض في الطبقات المتوسطة والعليا

Bordo, Unbearable Weight, pp.6263-. Naomi Wolf, The Beauty Myth: How Images of Beauty are Used Against Women 2nd edn. (New York: Anchor, 1992), pp.288299-.

وبرغم أن التركيز التقليدي يكون على النساء، فإن الصور الثقافية تركز الآن على المظهر البدني للرجال أيضاً، مما يؤدي إلى زيادة عدم الرضا عن الجسم لدى الذكور، وإلى اضطرابات في عادات الأكل. فقد أظهر مسح أجري في الولايات المتحدة في التسعينيات، على تلاميذ من الصفين الخامس والسادس الابتدائي، أن 43 من الأولاد يريدون أن يصيروا أكثر نحافة. وبينما يحاول الرجال والنساء التوافق مع الرسائل الثقافية الغربية بشأن الذكورة والأنوثة المثالية، فهناك اختلافات بين الجنسين في عدم الرضا عن الجسم وفي اضطرابات عادات الأكل. فالأغلب أن يكون الرجال غير راضين بسبب عدم ظهورهم بمظهر «ذكوري» كافٍ ـ أي قلة تناسب العضلات مع وزن الجسم، بينما عدم الرضا الأنثوي عكس ذلك ـ أي بسبب زيادة الوزن. Michelle Stacey, <The Thin Man>, Elle, 12,12 (August 1997), p.178.

(21) Staci Veron-Guidry and Donald A. Williamson, «Development of a Body Image Assessment Procedure for Children and Preadolescents», International Journal of Eating Disorders, 20, 3 (1996), p.287; Wolf, The Beauty Myth, p.215.

(22) Wolf, The Beauty Myth, p.274275-.

(23) Rugh, Reveal and Conceal, pp.1819-.

(24) Makhlouf, Changing Veils, p.21.

(25) Ibid., p.25.

(26) Ibid., p.23.

(27) Wikan, Behind the Veil, p.127.

(28) Makhlouf, Changing Veils, p.28.

(29) Ahmed, «Western Ethnocentrism and Perceptions of the Harem», p.531.

(30) V. Doubleday, Three Women of Heart (London: Jonathan Cape, 1988), pp.8485-.

(31) Linda A. Jackson, Physical Appearance and Gender: Sociobiological and Sociocultural Perspectives (Albany, NY: State University of New York Press, 1992), p.81.

(32) Pamela C. Regan, «Sexual Outcasts: The Perceived Impact of Body Weight and Gender on Sexuality», Journal of Applied Social Psychology, 26, 20 (1996), pp.18031804-.

(33) Thomas F. Cash, Jule R. Ancis and Melissa D. Strachan, «Gender Attitudes, Feminist Identity, and Body Images Among College Women», Sex Roles, 36, 71997) 8/), p.442.

(34) شـــريفة طـالبة تدرس العلاقات الدوليـــة ولم تكن محجبة وقت المقابلة,Cayer, Hijab .121-120 ,119-pp. 118

يقال: سبحانه وتعالى دائماً بعد ذكر لفظ الجلالة.

(35) Elizabeth Grauerholz, «Sexual Harassment in the Academy: The Place of Women Professors», in Sexual Harassment in the Workplace: Perspectives, Frontiers, and Responsive Strategies, (ed.), Margaret S. Stockdale (Thousand oaks, Calif.: Sage, 1996), p.46.

Obeikandl.com

(36)Susan Faludi, Backlash: The Undeclared War against American Women (New York: Crown, 1991), p.175.

(37)Wolf, The Beauty Myth, p.44;Faludi, Backlash, p.176.

(38) Faludi, Backlash, p.177.

(39) Wolf, The Beauty Myth, p.45.

(40) Helen Garner, The First Stone: Some Questions About Sex and Power (Sydney, Australia: Picador, 1995), p.134.

(41)Orbach, Fat is a Feminist Issue, p.52.

(42)Ibid., p.38.

(43)Ibid., p.13.

(44)Ibid., pp.173174-. Unbearable Weight, p.195

في كتابها تشير سوزان بوردو إلى أن هذا ربما تغير في التسعينيات، عندما تحول مدلول البدانة ليرمز إلى فقدان السيطرة والكسل والافتقار إلى القدرات الإدارية.

(45)Orbach, Fat is a Feminist Issue, p.170.

تقترح بوردو جانباً آخر؛ إذ تقول: فالنحافة الشديدة والبدانة حلول للرسائل المتناقضة التي تبعث بها أي ثقافة استهلاكية: فشديدة النحافة هي المثال للطاقة القصوى التي تتمتع بها الذات المنتجة («أخلاقيات العمل هي المتحكم المطلق»)، والبدينة هي المثال للطاقة القصوى للذات المستهلكة Unbearable Weight, p.210. («الاستهلاكية هي المتحكمة»)وتقول أيضاً: إن بعض النساء يرين الجسم النحيف مصدر قوة، يمكّن من الهروب من عالم البيت الأنثوي التقليدي، وفرصة «لتجسيد صفات تلقى تقديراً كبيراً في الثقافة الغربية» مثل «الاستقلال واحتواء الذات، والسيادة على الذات والتحكم فيها» برغم أنها تعد صفات «ذكورية» وليست «أنثوية»، ص209.

(46)Zuhur, Revealing Reveiling, p.102.

(47)Jamal Badawi, The Muslim Woman«s Dress: According to the Qur«an and Sunnah (Kuwait: Ministry of Awqaf and Islamic Affairs, n.d.), p.12.

(48)Wadud-Muhsin, Qur«an and Women, p.22. Nafs: Self, Soul. Zawj: (male) mate or spouse, pair.

(49)Wolf, The Beauty Myth, p.154.

(50)Ibid., p.290.

obeikandl.com

(51)Makhlouf, Changing Veils, pp.6869-.

(52)Mule and Barthel, »The Return to the Veil«, p.325.

(53)Ibid.

(54)Ibid., p.328.

(55)Macleod, Accommodating Protest, p.139.

(56)Reece, «Covering and Communication», p.39.

(57)Susan Bordo, »Feminism, Postmodernism, and Gender Skepticism«, in Theorizing Feminism: Parallel Trends in the Humanities and Social Sciences, (eds.) Anne C. Herrmann and Abigail J. Stewart (Boulder, Co.: Westview Press, 1994), p.459.

(58)Ibid., p.467.

(59)Helen Watson, »Red Herrings and Mystifications: Conflicting Perceptions of Sexual Harassment«, in Rethinking Sexual Harassment, (eds.), Clare Brant and Yun Lee Too (London: Pluto Press, 1994), p.81; L. Farley, Sexual Shakedown: The Sexual Harassment of Women on the Job (New York: Warner, 1980).

(60)Wolf, The Beauty Myth, p.165.

(61)Adele M. Stan(ed.), Debating Sexual Correctness, Appendix B, p.285.

(62)Grauerholz, «Sexual Harassment in the Academy», p.41; Frank E. Saal, «Men»s Misperceptions of Women«s interpersonal Behaviors and Sexual Harassment», in Sexual Harassment in the Work Place: Perspectives, Frontiers, and Responsive Strategies, (ed.), Margaret S. Stockdale (Thousand Oaks, Calif.: Sage, 1996), p.69.

(63)Bordo, «Feminism, Postmodernism, and Gender Skepticism», p.475.

(64)Haleh Afshar, »Women, Marriage and the State in Iran«, in Women, State and Ideology: Studies from Africa and Asia, (ed.), Haleh Afshar (London: Macmillan, 1987), p.74. See also Macleod, Accommodating Protest, p.83; Brooks, Nine Parts of Desire, p.24.

(65)Janet Holland, «Power and Desire: The Embodiment of Female Sexuality», Feminist Review,46 (Spring 1994), p.30.

obeikandi.com

(66)Bordo, Unbearable Weight, p.206.

(67)al-Ghazali, The Proper Conduct of Marriage in Islam, p.94.

(68)Ibid.

(69)Mernissi, The Veil and the Male Elite, p.185.

(70) Macleod, Accommodating Protest, p.139.

(71)al-Bukhari, vol.8, book 74, hadith no.248.

(72)Abdul Rahman Doi, Women in the Qur«an and the Sunnah (London: Ta-Ha Publishers, 1990), p.12.

(73) al-Ghazali, On Disciplining the Soul, p.187 (al-Bukhari, Buyu«, 98).

(74)al-Bukhari, vol.2, book 24, hadith no.504.

(75)Hessini, »Wearing the Hijab in Contemporary Morocco«, p.53.

(76)Yusuf al-Qaradawi, The Lawful and the Prohibited in Islam, trans. Kamal El-Helbawy, M.Moinuddin Siddiqui and Syed Shukry (Kuwait: International Islamic Federation of Student Organizations, 1993), p.28.

(77) اقتبست هذه الفكرة من كلام مليحة تشيستي في:

<Muslim Women and Community Involvement: An Overview> (Toronto, Canada: Institute of Islamic Thought, Nov.21, 1998).

(78)Brooks, Nine Parts of Desire, p.2.

(79)Wikan, Behind the Veil, pp.7273-.

(80)Abu-Lughod, Veiled Sentiments, pp.4548-.

(81) فيما يخص الشرف والنساء اليونانيات انظر:

Mary Castelberg-Koulma, «Greek Women and Tourism: Women»s Cooperatives as an Alternative Form of Organization, in Working Women International Prespectives on Labour and Gender Relations, (ed.), Nanneke Redclift and M. Thea Sinclair (London: Routledge, 1991).

(82)Helie-Lucas, «The Preferential Symbol for Islamic Identity», pp.393, 400401-.

(83)Macleod, Accommodating Protest, pp.150151-.

(84) يبدو أن هالة عفشر قد نمّت لديها القدرة على تمثل منظور المرأة المحجبة، انظر مقالها في:

obeikandi.com

Mai Yamani (ed.), Feminism and Islam: Legal and Literary Perspectives (Reading, Berks, UK: Garnet, 1996).

(85)Badawi, The Muslim Woman«s Dress, p.11, ومواضع أخرى

(86)Watson, <Women and the Veil>, وهـي المعلقة الغربية الوحيدة على «الحجاب» التي لفتت الانتباه إلى هذا الجانب.

(87) Bordo, Unbearable Weight, p.290. Also pp.246275 ,247-.

(88) لا يعني ذلك أن مظهر المرأة ليس مهماً في الثقافات الإسلامية، ولكن النساء ينزعجن من الأولوية التي يضعها الرجال والأسر للمظهر عند البحث عن زوجة، وتختلف الثقافات في الاهتمام بالسمات التي تعد «جميلة» أو «غير جميلة» (إذ تعد البشرة البيضاء والعيون الخضر من سمات الجمال في الثقافات الإسلامية الآسيوية). وفي الثقافات التي يسود فيها الحجاب، لا يطّلع على جمال النساء إلا نساء مثلهن، فتكون النساء رقيبات بعضهن على بعض، كما يقمن باستدعاء النظرة الثقافية الذكورية الواحدة على الأخرى، ولو كن يرتدين الحجاب خارج البيت. وغالباً ما يوجد تنافس صريح حول الطبقة ودرجة الجمال، مثل تكلفة ملابس المرأة أو حليها، وقدر ما تلبس من حرير أو ذهب أو فضة. وما أطرحه هو أن الحجاب ينبغي (أي على المستوى المثالي) أن يعني غياب هذا اللون من تنافس الجمال والطبقة، إذا كان الهدف إلغاء الحكم على المرأة بمظهرها. ومن خبرتي أقول: إن هذا التنافس في الطبقة والجمال يغيب بين النساء الواعيات للمثال الإسلامي، فلا يحكمن على النساء بهذه الطريقة.

obeikandl.com